وكان تقيّا

رواية تاريخية

كمال [illegible]

كمال السيد

وكان تقيا

رواية تاريخية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد، كمال
وكان تقياً؛ رواية تاريخية/كمال السيد. ـ قم:
انصاريان، ١٣٧٨ ـ ١٩٩٩
١٩٥ ص.
كتابنامه: ص. ١٧٧ ـ ١٨٥
شابک: ٨ ـ ٠٩٠ ـ ٤٣٨ ـ ٩٦٤
١. محمد بن علی التقی (ع)، امام نهم، ١٩٥ـ٢٢٠ ق. ـ سرگذشتنامه ـ داستان
الف. عنوان
٨و٩س/٤٨ BP ٢٩٧/٩٥٨٢

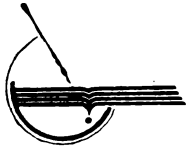

مؤسسة انصاريان للطباعة و النشر
جمهورية ايران الاسلامية
قم ـ شارع الشهداء ـ فرع ٢٢
ص.ب ١٨٧ هاتف ٧٤١٧٤٤

اسم الكتاب: وكان تقيّاً
المؤلف: كمال السيّد
الناشر: مؤسسة انصاريان للطباعة و النشر ـ قم
الطبعة: الاولى ١٩٩٩م ـ ١٤٢٠هـ
المطبعة: الصدر ـ قم الكمّية: ٢٠٠٠
شابك ٨ ـ ٠٩٠ ـ ٤٣٨ ـ ٩٦٤

الإهداء

الىٰ الذي ودّعته صغيراً

ثم بعد عشرين سنة..

صـــار كـــبيراً..

كـــبيراً جـــداً!

اكـــبر مـــنّي!!

إلىٰ أخـــي حـــميد..

« ـ تخلو الأرض من إمام؟

ـ لا.

ـ فيكون فيها اثنان؟

ـ لا، الاّ وأحدهما صامت لا يتكلم.

ـ قد علمت أنك لست بإمام.

ـ من أين علمت؟

ـ إنه ليس لك ولد وانما الامامة في العقب.

ـ (بغضب) وماعلمك أنه لا يكون لي ولد؟!

والله لا تمضي الايام والليالي حتىٰ يرزقني الله ولداً ذكراً يفرّق بين الحق والباطل...». الكافي ٣٢١/١

وبعد شهور تسعة:

ـ لقد ولد لي شبيه موسى بن عمران فالق البحار...

وشبيه عيسىٰ بن مريم.. قدّست أم ولدته..

1

ما تزال بغداد تلعق جراح حرب أهلية ضروس، وآثار الحرائق التي طالت كثيراً من قصور بغداد وأحياءها بادية للعيان خاصّة الذين يعبرون دجلة من جسر الرصافة...

وعندما تغطس الشمس في بحيرة المغيب تستحيل بغداد الىٰ مدينة موحشة... فالليل يغرق المدينة بظلمة كثيفة تزيدها رهبة أشباح تمرق في الظلام، وقد عجزت الشرطة عن الحدّ من انتشار السرقة والسطو على البيوت، واختطاف الجواري.

مضت أسابيع على وصول المأمون ولكن كل شيء على حاله وكان جلّ هم الخليفة القبض على عمّه، وعلى بعض الذين ساندوه في تمرّده واعلانه خليفة.

في الليل يمرق اللصوص كالأشباح، لصوص محترفون

بعضهم مجهز بـ«البنج» الذي يصرع الفيلة!

فإذا طلعت الشمس استيقظت بغداد وإذا بعض اللصوص يرتدون ثياباً ممزّقة كالشحاذين في حين يرتدي بعض آخر ثياباً كالتي يرتديها المتصوّفة والدراويش..

مئة ألف أو يزيدون من هؤلاء يعبثون في عاصمة الشرق، والشرطة ما تزال تجدّ في البحث عن ابن شكلة وقد تصاعدت وتيرة اختطاف الجواري.

مضت أربعة أعوام بعد مئتين من الهجرة، وقد بدت بغداد تتكيف مع الوضع الجديد، وأظهر الخليفة الذي قتل أخاه حزماً في إعادة الامن الىٰ عاصمة آبائه.

وفيما كانت السفن الاسلامية تتجه نحو جزيرة صقلية، كان الولاة الجدد يتجهون نحو تسنم مسؤولياتهم في حكم الاقاليم في الكوفة والبصرة الحجاز وفي ما وراء النهر.

كما ظهر مئات العمال والمهندسين على ضفاف دجلة لبناء القصور الجديدة[1]...

والمياه الغرينية ما تزال تتدافع صوب البصرة حاملة معها السفن الشراعية... وعلى امتداد جبهة النهر، تبدو النخيل كرموش حورية حزينة وقد ضاعف النخيل المحترق منظر

الحزن... وشيئاً فشيئاً كانت الحياة الطبيعية تعود من جديد... وتعود الضجة الى الاسواق، خاصّة أسواق الصاغة والورّاقين، وسوق الجواري... كما انتعشت سوق الغلمان خاصّة بعد انتشار فتوى القاضي ابن اكثم[2].

وبين اسبوع وآخر كان المأمون يصطحب نخبة من قوّاته بذريعة الصيد الى خارج بغداد لارهاب خصومه وكل شيء كان يسير لصالح الخليفة... وبين يوم وآخر كان بعض خصومه ومناوئيه يسلّمون انفسهم ويستغفرون عما بدر منهم وعفا الله عما سلف!

اما الذين يتقنون الفارسية فقد سطع نجمهم، فقد بدأ زمن الترجمة لتصبح منجماً للذهب وسلّماً للمجد[3]..

في ذلك الزمن نشأ صبي أسمر الوجه.. نشأ في المدينة المضيئة... اسمه محمد... وقد آتاه الله الحكمة صبياً فمن يكون ذلك الفتى الذي بلغ من العمر تسع سنين!

2

ان يتكلم صبي في المهد فتلك معجزة... فالطفل في المهد زهرة تتفتح للحياة... أودع الله فيه أسراره... وقذف في قلب امّه محبّة منه... إذا جاع بكىٰ... فاذا بكى وجد صدراً حنوناً ولبناً سائغاً وعاطفة هي قبس من رحمة الله أودعها الامهات..

فإذا تكلم صبي في المهد تتحطّم على شفتيه ما اعتاده الناس فيكون الطفل آية لله.. فاذا نطق بالحكمة واذا ازاح عن الفكر البشري حجب الرؤية المحدودة المثقلة بالطين... فان كلماته ولاشك ستكون كلمة الله يريد اسماعها للانسان..

في ذلك الزمن وحيث كل شيء يمضي على سنن الطبيعة تكلم صبي اسمه محمد... فكانت كلماته الدافئة معجزة وكرامة للانسان الذي مسته السماء حتى اذا هوىٰ والده في «طوس» غريباً لم يكن أحد من سكان المدينة قد سمع شيئاً فخيول

البريد تستغرق أياماً طويلة.. ولكن في تلك اللحظة شعر محمد بنور يسطع في أعماقه.. وحقائق كبرىٰ تضطرم في باطنه.. واجتاحته حالة حزن مرير... كأن دخان الدموع يتصاعد الى عينيه.. فقال شبيه عيسى بن مريم لجارية في المنزل:

ـ قولي لهم يتهيأون للمأتم!!

ـ مأتم من؟

ـ مأتم خير أهل الأرض.

وعمّ الحزن قرية «صريّا» فهذا الصبي لا ينطق عن هوى وكلماته حق وحقائق.. وفي تلك الليلة روت الجارية وكانت حاضنة له:

ـ ما رأيت صبياً في حياتي مثله... كان يذهل عن نفسه.

ويستغرق في الفكر... قلت له ذات يوم وقد رأيته يرسل نظرات عميقة الغور: مالي أراك مفكراً كأنك شيخ؟ فقال لي: ان عيسى بن مريم كان يمرض وهو صبي فيصف لامه ما تعالجه به فاذا تناوله بكى فتقول له: يا بني انما أعالجك بما علمتني فيقول لها: الحكم حكم النبوّة والخلقة خلقة الصبيان!

وتمرّ أيام وتأتي خيول البريد بانباء طوس الحزينة، لقد هوىٰ نجم أضاء في سماء العالم حيناً من الدهر... ليسطع نجم

جديد..

هناك في قرية «صريّا» في ضـواحـي المـدينة المـنورة أشرق الكوكب التاسع واضحت تلك القرية الصغيرة قلبا ينبض بالسلام في زمن القلق الانساني..

وكان الحائرون والذين يبحثون عن نجم يهديهم سـواء السـبيل يـقصدون القـرية لرؤيـة الفـتى المـعجزة الذي بـهر مجتمعه بكلماته وأجوبته.

3

لموسم الحج في بغداد نكهته، أهل بغداد يجعلون من كلّ مناسبة احتفالاً ويمرحون فيها، فاذا صادف الموسم ربيعاً كان الاحتفال كبيراً، وتستحيل البساتين في الجانب الغربي الى متنزه مترامي الاطراف، ويقصد الفقراء من الحجاج أمكنة خاصّة يتلقون فيها بعض العون على رحلتهم الشاقة الى بيت الله، كما يستغل بعض الشبّان هذه المناسبة فيرتدون حللاً زاهية جميلة يفتنون بها الفتيات اللاتي يفعلن مثل ذلك.. ويستمر الوضع أياماً معدودة ريثما تنتظم قوافل الحجيج ويعيّن أمير الحج.

وفي ذلك العام كان كثير من فقهاء بغداد واطرافها قد عزموا على الحج للقاء «ابن الرضا» فقد كثر الجدل حول امامته... وما تزال حادثة «بركة زلول»[4] تلقي ظلال الشك والحيرة على الكثيرين.

وكان السؤال كيف يمكن لصبي في التاسعة أن يكون إماماً للمسلمين فليست الامامة زعامة عادية... انها تنطوي على مسؤولية خطيرة...

من أجل ذلك اجتمع ثمانون فقيهاً من بغداد وغيرها وقد عزموا على الحج من أجل استجلاء الحقيقة...

من أجل هذا كثر الجدال حول هذه المسألة، وقد يسمع المرء اذا أراد الأصغاء لبعض الحجاج الذين جلسوا على شاطئ دجلة هذا الحوار:

ـ لقد سمعت أن «عبدالله بن موسى» قد جلس للافتاء..

ومعنى هذا انه هو الامام بعد علي الرضا:

ـ كيف وقد جاء في الروايات ان الامامة لن تكون في الاخوين بعد الحسن والحسين؟!

ـ فكيف يعقل أن يكون صبي في التاسعة إماماً؟!

ـ ولم لا... ألم يؤت الله النبوّة يحيى وقد كان صبياً... ألم يتكلم عيسى في المهد وبشر بني اسرائيل بنبوّته؟!

ـ ان يحيى وعيسى نبيّان.

ـ وما الفرق بين الامامة والنبوّة كلاهما عهد الهي؟!

والله أعلم حيث يجعل رسالته..

ـ ما تقوله صحيح ولكني لن أصدّق فالصبي صبي في فكره وعقله وعلمه.

ـ فإذا كان هذا الصبي عالماً بالشريعة... يجيب اذا سئل... ويفتي الناس اذا استفتوه؟

ـ لقد اعتدنا ان نرى العلماء وهم بيض اللحى وقد اشتعل الشيب في رؤوسهم.. أما أن يكون الصبي عالماً وامام فهذا يحيّر العقل... لقد كان أبوه عالماً كبيراً غلب رؤساء الأديان وطار صيته في الآفاق... من يصدّق ان عمران الصابىء هذا الذي هزم الكثيرين يستسلم أمام الرضا ثم يسلم وجهه لله؟.

كأنك نسيت «الشيخ معروف» لقد أسلم هو ووالديه ببركة الرضا.. كانت وفاته خسارة لا تعوض!

ـ الناس يقولون أشياء كثيرة ويتهمون المأمون.

ـ الله هو الذي يعلم حقائق الأمور.. دعنا من هذا الكلام.. وأخبرني عن هذه المصوغات التي اشتريتها؟

ـ لقد اشتريت مصوغات اطفال من السوق لأبي جعفر فهو صبي وأنا أحبّ ان ادخل على قلبه الفرحة...

ـ هل تتصور انه سيقبلها؟

ـ ولم لا؟ لا تنسى أنه ما يزال صبياً؟

4

كان الجدل حول الظروف التي توفي فيها الامام الرضا ما يزال محتدماً... بعض يرى أن الوفاة كانت طبيعية، وهؤلاء كانوا لا يشكون بتعاطف المأمون مع العلويين، أما الذين كانوا يعرفون الامام الرضا وعدم رضاه واستيائه من ولاية العهد فقد كانوا يشككون في نوايا المأمون، ثم ما الذي حصل لكي يموت الامام فجأة في الطريق الى بغداد؟... اليست هذه محاولة لارضاء بني العباس في بغداد؟ هناك الكثير من الاسرار.

وقد سئل الصبي العالم فأجاب:

ـ«الأيام تهتك لك الاسرار الكامنة»[5].

كانت أخريات ذي الحجة، وقد انطوى موسم الحج، وعادت قوافل الحجيج الى ديارها ولكن ثمانين من فقهاء بغداد غادروا المدينة الى قرية «صريّا» في الضواحي القريبة.. وكان

الهدف تقصّي هويّة الامام الجديد.. والطريق الوحيد هو الامتحان.. فالامام اذا سئل أجاب.. فهو مستودع لأسرار السماء وامتداد لعلم الانبياء...

جلس الرجال ينتظرون.. وبين الفينة والأخرى كان رجل يدخل ليتخذ له مكاناً بين الناس... ودخل عبدالله بن موسى يرتدي ثياباً خشنة وكان شيخاً قد اضفت آثار السجود في جبينه عليه هيبة..

ولم يطل الانتظار حتى خرج صبي في التاسعة من العمر يرتدي ثياباً مصنوعة من الكتّان، ونعلاً بيضاء ناصعة.

فنهض عمه عبدالله وقبله في جبينه، ونهض الناس جميعاً ثم عادوا الى جلستهم وساد صمت مهيب.

هناك في حياة الانسان أسرار لا يدركها المرء، في أمد من السنين وقد لا يدركها أبداً... شيء ما كانت تخشع له القلوب لأول نظرة... ولقد هيمن روح شفاف بمجرّد أن استوى الصبي على الكرسي..

النظرات البريئة الطاهرة والوجه المتألق سمرة ونوراً كان يبعث في القلوب السلام والسكينة ونهض رجل ليسأل فقال:

ـ ما لنا نرى البعض يصلّي فيكثر في الصلاة، ويصوم فلا نرى في مسلكه خير؟!

قال الذي أوتي الحكم صبياً:

ـ القصد الى الله تعالى بالقلوب أبلغ من اتعاب الجوارح بالأعمال.

ـ مال الناس يجلّون الثريّ مع انهم لا ينتفعون بأمواله؟!

ـ الغني كريم عند أهله.

ـ وعند غير أهله؟

ـ لا الّا أن يكون يجدي عليهم نفعاً.

ـ فلماذا يجلّونه إذن مع انهم لا ينتفعون بماله؟!

ـ لأنّ معشوقهم عنده وهو المال!

وخشعت القلوب لحكمة هذا الصبي الذي يمزّق الحجب لتظهر الحقيقة... حقيقة البشر.

ونهض رجل آخر فقال:

ـ أوصني يا بن النبي:

ـ أتقبل وصيتي؟

ـ نعم.

ـ توسّد الصبر، واعتنق الفقر، وارفض الشهوات، وخالف

الهوى، واعلم أنك لن تخلو من عين الله فانظر كيف تكون.

وقال رجل قد ذرف على الستين وقد عركته الحياة:

ـ من كمال مروءة الانسان؟

ـ تركه ما لا يجمل به.

ـ ومن حيائه؟

ـ أن لا يلقى أحداً بما يكره.

ـ ومن عقله؟

ـ حسن رفقه.

ـ ومن أدبه؟

ـ أن لا يترك ما لا بد له منه.

ـ ومن عرفانه؟

ـ علمه بزمانه.

ـ ومن ورعه؟

ـ غض بصره، وعفة بطنه.

ـ ومن حسن خلقه؟

ـ كفّه أذاه.

ـ ومن سخائه؟

ـ برّه بمن يجب حقه عليه وإخراجه حق الله من ماله.

-ومن إسلامه؟

-تركه ما لا يعنيه، وتجنبه الجدال والمراء في دينه.

-ومن كرمه؟

-ايثاره على نفسه.

-ومن صبره؟

-قلة شكواه.

-ومن عقله؟

-إنصافه من نفسه.

-ومن حلمه؟

-تركه الغضب عند مخالفته.

-ومن انصافه؟

-قبوله الحق إذا بان له.

-ومن نصحه؟

-نهيه عما لا يرضاه لنفسه.

-ومن حفظه جوارك؟

-تركه توبيخك عند اسائتك مع علمه بعيوبك.

-ومن رفقه؟

-تركه ملامتك عند غضبك بحضرة من تكره.

ـ ومن حسن صحبته لك؟

ـ إسقاطه عنك مؤونة أذاك.

ـ ومن صداقته؟

ـ كثرة موافقته، وقلّة مخالفته.

ـ ومن شكره؟

ـ معرفة إحسان من أحسن إليه.

ـ ومن تواضعه؟

ـ معرفته قدره.

ـ ومن حكمته؟

ـ علمه بنفسه.

ـ ومن سلامته؟

ـ قلّة حفظه لعيوب غيره، وعنايته باصلاح عيوبه[6].

وسكت الشيخ ثم هتف بخشوع:

ـ أشهد أنك آية من آيات الله وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته!

5

أمر عجيب!

هتف أحد الحجاج وهو ينهض ثم ألقى نظرة على الكرسي الخالي لقد غادر الصبي الاسمر المكان.. لقد ظل طيلة الوقت ينظر اليه..

سرّما يشدّه من الاعماق.. نحوه وعندما وقعت عينا الصبي عليه بهرته اشراقة النور التي تطلّ من عينيه المتألقتين.. وشعر أن قلبه يسبح في رشاش من الضوء.

لم يبق في المكان سواه ورجل آخر..

وجاء الخادم ليلقي نظرة أو يقوم بعمل ما، فقد غادر الضيوف.

قال موجهاً خطابه للرجلين:

ـ هل من خدمة يا حاج؟

نهض الواسطي وكان شيخاً في السبعين من العمر:

ـ أريد لقاء أبي جعفر.

ـ سوف استأذن لك.. وأنت يا حاج..

نهض الرجل:

ـ لا.. ليست لي حاجة..

غاب موفق لحظات ليعود:

ـ يمكنك الدخول:

دخل الشيخ وحيّا الصبيّ المدني.. الذي أوتي علم الكتاب.. طافت في ذهنه تساؤلات وهو يقف مبهوتاً.. أمر عجيب.. أنه يقف في مقابل صبي هو حجة الله على الناس جميعاً.. يقف أمام إنسان لم يبلغ مبلغ الرجال ومع ذلك فان مئات الألوف من البشر تدين بزعامته كم مرّة ختم القرآن وكم مرّة ردد قوله تعالى في يحيىٰ: «وآتيناه الحكم صبياً» لكنه لم يكن يستطيع أن يتصوّر هذا الأمر بل أنه لم يتدبّر في ذلك أبداً، ولكن الحقيقة الماثلة أمامه تهزّه وتوقظه..

كيف يمكن لصبي لم يبلغ الحلم بعد أن يختصر العالم ويكون مفسّراً لكلمات الله؟ بل كيف يمكنه المجازفة بتحمل هذه المسؤولية الخطيرة في زمن استحال فيه العباسي الىٰ غول

مخيف يلتهم ابناء علي اينما ثقفوا؟!

ونظر الصبي الىٰ الشيخ فقرأ في عينيه الحيرة قال الشيخ وقد تجمّعت في أعماقه دهشة الشيعة:

ـ يا سيدي! إن الناس ينكرون عليك حداثة سنك!!

قال الصبي:

ـ ولم ينكرون ذلك؟ أينكرون كلمة الله يخاطب نبيه: ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾... والله ما تبعه الّا علي وله تسع سنين وأنا ابن تسع سنين»[7].

ـ يا سيدي أسألك عن تفسير قول الله عز وجل: ﴿ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض؛ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخر عذاب عظيم ﴾[8].

ـ انهم ثلاثة انواع فمن حارب الله فأخذ مالاً وارتكب قتلاً كان جزاؤه القتل والصلب، ومن حارب ولم يأخذ مالاً كان جزاؤه القتل بلا صلب..

ومن حارب فأخذ مالاً ولم يقتل كان جزاؤه أن تقطع يده ورجله من خلاف..

ومن حارب ولم يأخذ مالاً ولم يقتل كان جزاؤه النفي..

وفي الآية التي تلي هذه الآية استثنى الله سبحانه التائبين فقال عز وجل: ﴿ الّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾.

يا سيّدي! لقد جئتك بهدية ومصوغات من بغداد.

قال الواسطي ذلك وفتح عقدة منديل لتظهر ألعاب الاطفال وكان بعضها مصنوعاً من الفضة...

توقع الشيخ أن الفرحة ستجد طريقها الى قلب الصبي وستشرق في عينيه.. لكنه فوجئ بتلك العينين المتألقتين تستحيلان الى نافذتين تطلّان على عالم يموج بالحزن... ان غضباً مقدساً يتأجج في أعماق الصبي الطاهر... أمسك محمد بالمصوغات وراح يرميها يميناً وشمالاً.

قال وقد تهدج صوته من الغضب:

ـ ما لهذا خلقني الله! ما أنا واللعب؟!

كان منظر الألعاب المتناثرة، يعكس محنة القلوب الحائرة التي لم تدرك بعد: كيف يكون الصبي إماماً... كيف تتركز في وجوده غائية الوجود الانساني؟

قال الشيخ وقد شعر بانه ارتكب خطأ جسيماً:

ـ العفو يا سيدي.

ـ عفا الله عنك.. لم آذيتني؟

6

في بغداد وفي الكوفة وحتى في المدينة المنورة وقم كثرت الشائعات حول الظروف التي توفي فيها علي بن موسى الرضا، وكانت اصابع الاتهام تشير الى الخليفة العباسي الماكر عبدالله المأمون الذي فاق اسلافه مكراً. ولم يكن صعباً عليه أن يجد مخرجاً من ذلك وهو الذي صمد في وجه عواصف الزمن..

الصورة التي صنعها المأمون كانت برّاقة فقد تزعم مشروع المصالحة بين البيتين العباسي والعلوي وكانت خطوته المذهلة بانتخاب أبرز شخصية في البيت العلوي لولاية العهد، فأخمد بذلك لهيب الثورات هنا وهناك وكان الذين يعفو عنهم في وضح النهار يختفون في ظلام الليل وتسجل الوفاة طبيعية! وكانت المستحضرات القاتلة والمصنوعة بمهارة فائقة تتطور يوماً بعد يوم.

لقد استطاع الداهية العباسي ضرب طوق من الحصار على الامام الرضا حتى بات يتمنى الموت من أجل الخلاص[9]، فهل يصعب عليه صبي في العاشرة من عمره؟!

لم يشعر المأمون بالخطر، ولكن التقارير التي وصلته من المدينة تفيد بأن الغالبية من شيعة أهل البيت وفي طليعتهم الفقهاء قد آمنوا بـ «محمد» إماماً والذين يعرفون تشدّدهم في امتحان الائمة يدركون ان وراء هذا الصبي المعجزة سرّ الهي مكنون.

فصبي تخشع القلوب لمرآه، وصبي اذا سئل أجاب وإذا تكلم تدفقت من بين شفتيه ينابيع الحكمة لكأن الكلمات التي يقولها حقائق مجرّدة ترتدي ثوب الألفاظ وأردية الحروف.

فأية حقيقة أبلغ من كلماته وهو يقول:

ـ عزّ المؤمن في غناه عن الناس.

ـ كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة.

ـ نعمة لا تشكر كسيئة لا تغفر.

ـ من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه.

ـ موت الانسان بالذنوب اكثر من موته بالأجل... وحياته بالبرّ أكثر من حياته بالعمر.

من أجل هذا رأى المأمون وهو أمهر أهل زمانه في الشطرنج[10] أن يستدعي الصبي الى بغداد... وأن يعين على موسم الحج ذلك العام أميراً علوياً فيكون قد كمم أفواه الذين يتهمونه باغتيال الرضا.

وهكذا بدأ فصل جديد في حياة محمد بن علي الرضا الذي سيعرف فيما بعد بابن الرضا والجواد، التقي، المنتجب، المرتضى، المختار، المتوكل، القانع، الزكي، العالم، فكانت اسماء حسنى.. أوسمة منحتها إيّاه الجماهير التي عاصرته.

كان مسجد النبي ذلك الضحى هادئاً، وكانت مساقط الضوء عبر الكوى تضيء المكان وتكسبه حالة من الشفافية... والى اسطوانة في الجانب الايمن من البقعة الطاهرة حيث يرقد آخر الانبياء استند شيخ قد اجتاز الثمانين... لحيته البيضاء كالقطن بدت كهالة قمر في سماء صافية، وعيناه تشعان تواضعاً، يشعر المرء وهو يجلس في حضرته انه يتفيأ ظلال نخلة محملة برطب جني، أو نبع يتدفق ماءً زلالاً.

هادئاً في جلسته وحوله رجال في منتصف العمر ربّما اجتذبتهم فيه طمأنينة في زمن قلق.

ودخل محمد بن علي وكان وجهه المستدير الاسمر

يتألق براءة وطهراً وهبّ علي بن جعفر فكأنه ينفض عن بدنه عشرات السنين المثقلة بالحوادث، ولم يكترث لردائه الذي سقط عن كتفيه وتقدم الى الصبي الذي مسّته السماء وأراد أن يقبل يده لكن الصبي سحبها برفق.

قال الصبي بأدب:

ـ اجلس يا عم!

قال الشيخ وهو عمّ لأبيه:

ـ كيف اجلس وأنت قائم.

ـ جئت لزيارة جدّي و.. مودّعاً.

ـ الى أين مولاي؟!

ـ الى بغداد يا عم.

وتقدم الصبي نحو الضريح الذي تفوح منه رائحة الفردوس فيما عاد الشيخ الى اصحابه... وهتف أعرابي ادهشه المشهد العجيب:

ـ من هذا الفتى؟!

أجاب الشيخ الذي تناهبته السنون:

ـ هذا وصي رسول الله!

وفغر الأعرابي فاه:

ـ كيف؟! رسول الله قد مات منذ مائتي سنة، وهذا صبي... إنّ هذا لشيء عجاب!!

ـ يا اعرابي هذا وصي علي بن موسىٰ.

وموسى وصي جعفر بن محمد.

وجعفر وصي محمد بن علي.

ومحمد وصي علي بن الحسين.

والحسين وصي علي بن ابي طالب.

وعلي بن أبي طالب وصي رسول الله.

استاء رجل واقفي فقال متسائلاً:

ـ ما فعل أخوك أبو الحسن موسى بن جعفر؟

قال الشيخ وقد اهتز لذكرىٰ أخيه:

ـ قد مات:

ـ ومن اين تعرف انه مات، وقد روي عن أبيك جعفر الصادق قوله: ان ابني هذا يعني موسى فيه نسبه من خمسة انبياء: يحسد كما حسد يوسف، ويغيب كما غاب يونس...

قال علي بن جعفر:

ـ والله ما قال ابي ذلك انما قال:

صاحب هذا الأمر ويعني المهدي... اما أخي موسى فقد

مات في ظلمات السجن... سجن المطبق.. ولولا ذلك ما اقتسمت أمواله ولا نكحت نساؤه ولولا ذلك ما نطق الناطق بعده!

ـ ومن الناطق بعده؟

ـ ابنه علي.

ـ فما فعل؟

ـ مات.

ـ وما يدريك انه مات؟

ـ قسّمت أمواله، ونكحت نساؤه، ونطق الناطق بعده.

ـ ومن الناطق بعده.

ـ أبو جعفر وهو ذاك عند قبر جدّه.

قال الواقفي وقد أراد أن ينفث في قلب الشيخ نفحة شيطانية:

ـ كيف تقول ذلك وأنت ابن جعفر الصادق...

قال الشيخ بغضب:

ـ ما أراك الّا شيطاناً.

وأردف بحزن مرير وهو ينظر باتجاه السماء:

ـ ماذا افعل اذا كان الله قد رأى هذا الصبي للامامة أهلاً ولم ير هذه الشيبة لها أهلاً[11]؟!

7

الربيع فصل الورود، فصل الزوابع والرعود، ولكن النسائم الطيبة التي تغمر ضفاف دجلة وقد كساها العشب الأخضر تفجر في قلوب الناس حب الحياة، ولم يكن أهل بغداد الذين اعتادوا التنزّه في تلك الربوع الزاهية يتركون عادتهم بالرغم من جراح وخرائب الحرب الاهلية التي كادت تحيل بغداد الى خرائب وأطلال، فالقصور التي أحرقها الأمين تنهض مكانها قصور أجمل، والحياة كدجلة تتدفق أمواجها...

كانت شطآن دجلة تزدان ذلك الضحى بألوان زاهية ولم يكن ذلك بسبب الورود الربيعية التي فاح شذاها في الفضاء وانما يعود ذلك الى عشرات بل مئات الفتيات والشباب الذين لا تفوتهم مثل هذه المناسبات.

بغداد واهلها يحتلفون بالنيروز احتفالهم بالاعياد

الأخرى كان الشحاذون وأكثرهم ماكرون يتفننون في ابراز عوزهم وبؤسهم ومواهبهم، وفي مدينة تقدس المال والثراء ويتفنن أهلها في جمعه لابدّ وان ينبغ شحاذوها وقد يصبح أحدهم عبقرياً في فنّه. فقد تراه في بعض الأحيان شاعراً أو فناناً هكذا عاشت بغداد... حسناء لعوب، غانية طروب مدينة الاساطير الجميلة... لكن الفقراء وحدهم كانوا يعرفون أسرارها ويعرف حقيقتها ايضاً الشحاذون.

ان من يريد الذهاب للتنزّه على ضفاف دجلة، أو الذي ينوي الذهاب الى سوق الوراقين، أو سوق الجواري والذي يعبر جسر الرصافة الى الكرخ أو حتى الذين يريدون دفن موتاهم في المقابر لابد وأن يصادفوا بعض الشحاذين الذين اتقنوا حرفاً يصعب على من يراهم الشك فيهم، ولعلّ بعضهم من «الشطّار»[12] الذين عبثوا في بغداد اثناء الحرب وبعدها، ثم طردوا منها واعدادهم تبلغ الألوف فسكنوا الطرق والضواحي وعاد بعضهم متلبساً زي الشحاذين.

وبغداد مدينة عجيبة فهي لا تمنح مالاً لذوي الفاقة والحاجة حتى يحذقوا في مهنتهم، ولا للشعراء حتى يتغنّوا بالخمرة وليالي السكر والعبث.

وفي ذلك الضحى الربيعي من سنة ٢٠٥ هـ يصادف المرء لو أراد أن يتسكع في المدينة أناساً شتىٰ يرتدون ازياء مختلفة ولكنه سيرى أيضاً الى جانب المحتفلين بقدوم الربيع ناساً يرتدون أزياء البحارة والملاحين، أما التجار وهم طبقة ثرية لم تتأثر بويلات الحرب فقد كانوا يرتدون أزياء لا توجد الّا في قصر الخليفة.

ودجلة وهو يخترق بغداد لم يشطرها الى نصفين «كرخاً» و«رصافة». وانما شطرها ايضاً الى اثرياء وشحاذين، متخمين وجائعين!

بغداد تضج بالحياة.. بالحركة، وفي ذلك الضحى امتلأت الاديرة القريبة وحتى البعيدة بالشباب ممن يقصدونها لشرب الانخاب، فليس الذ من خمرة الاديرة ولا أجمل من تلك الفتيات وهن يخطرن حاملات الكؤوس المثلجة المترعة بذلك السائل الشفاف الذي يميل قليلاً الى اللون الوردي.

أما الشحاذون فراحوا يتفننون فى ابراز بؤسهم ومواهبهم هناك رجل يتظاهر بالنسك وقد كتب على قرطاس قصته وهو يتظاهر بالعجز عن الكلام، حتى انه قد اخفىٰ لسانه بطريقة لا يمكن الشك فى أنه لا لسان له بالاصل!

وهناك من يتظاهر بالصرع والجنون، وقد امتلأ فمه بالزبد حتى اذا رأى ازدحام المارّة والعابرين، اجتاحته نوبة لا يشك من يراه في أنه لن يعيش بعدها.

وبين الفترة والأخرى يهتف أحدهم:

ـ بينوا... بينوا[13].

وهو يعرف أن اكثر الناس في عاصمة الشرق يعرفون الفارسية.

وقد يعمد بعض الشحاذين الى لفّ يده ورجله لفاً شديداً ليلة كاملة حتى اذا انحصر الدم فيهما، مسحهما بالصابون والدم ثم يدهنهما بالزيت ولفهما بحزمة من القماش كاشفاً عن جزء منهما فلا يشك من يراه الّا انه مصاب بمرض خبيث.

وفي الطريق الى سوق الصاغة ينتشر بعض الاطفال من ذوي العاهات فهذا أعمى وذاك اعشم أو أعضد، وكلّهم أو أغلبهم قد تعرّضوا الى عمليات جراحية لتشويههم وتحويلهم الى وسائل للتكدي، وهؤلاء الاطفال يصبحون مصادر جيدة للتكسب حتى أن أهليهم يكرونهم للغير بأجر محدد[14].

حتى الطرق الخارجية لا تخلو من شحاذين محترفين تصادفهم القوافل المسافرة الى مكة والشام وخراسان، فقد يظهر أحدهم واقفاً على حمار ميت أو بعير ويدّعي انه صاحبه

وأنه قادم من خراسان، أو اليمن أو أفريقيا، وحتى يبدد الشكوك عنه يرطن ببعض الكلمات التي تعلّمها من قبل!!

وفي ذلك الضحى خرج المأمون في موكب مهيب في رحلة صيد، وشاء القدر أن يصل محمد بغداد في ذلك الضحى فكان اللقاء...

كان الأطفال يلعبون بفرح، وكان محمد يراقب بابتهاج مناظر البراءة وهي تتألق في عيون الصبية، وفي تلك اللحظات كان موكب المأمون قد اجتاز «الطاقات» في بوابة الكوفة، وقد اضفى مشهد الجنود على صهوات الخيل الرهبة على موكب الخليفة الذي قهر خصومه جميعاً وطرد عصابات «الشطار» من بغداد..

الموكب يقترب شيئاً فشيئاً وهتف صبي بذعر:

ـ جنود الخليفة!

فرّ الصبية واقفرت الطريق الفسيحة فيما ظل صبيّ واحد ينظر بثقة الى الموكب.

واثار مشهد الصبي بثباته وشجاعته فضول المأمون الذي لوى زمام حصانه باتجاه الصبي.

الصبي بوجهه الاسمر الذي يشع براءة وطهراً ينظر بطمأنينة الى القادم وقد احتفّ حوله جنود غلاظ فيما ظهر باز

مدرب على الصيد على كتف الخليفة.

قال الخليفة متعجباً:

ـ ما الذي أخرك عن الفرار يا بني؟!

أجاب الفتى السيد بوقار:

ـ ليس في الطريق ضيق، حتى أوسعه لك، ولم اقترف ذنباً فأخشاك منه، وأظنّ أنك لن تنزل الأذى بمن لم يرتكب خطأ.

ابتهج المأمون وقال:

ـ ما اسمك؟

ـ محمد.

ـ ابن من؟!

ـ ابن علي الرضا[15].

وبرقت في ذاكرته صورة الرضا هو يتناول حبّات العنب المسمومة وملاعق الرمان في ذلك اليوم الخريفي، للحظات شعر بالشفقة لهذا الصبي اليتيم الذي تشبه سمرته سمرة والده الراحل... ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ الحكم والملك والسلطان وهذه الدنيا العريضة تضيق بالخير... ليس هناك من طريقٍ سوى تصفية كل من يقف في طريقه.. والحياة ليست سوى رقعة شطرنج واسعة، والبقاء للأذكى!

همز المأمون حصانه مستأنفاً طريقه، فيما أخذ الصبي السيد سمته باتجاه بوابة بغداد المشرعة باتجاه الكوفة.

كان السيد الأسمر واقفاً ينظر الى المياه المتدافعة في نهر «الصراة»[16] عندما عاد موكب المأمون من رحلة الصيد التي لم تستمر طويلاً ربما بسبب زوابع ذلك اليوم الربيعي.

ظهر المأمون في مقدمة الموكب المهيب وكان مشهد الصقر الذي أخذ مكانه فوق رأس الحصان يشدّ الانظار.

مرّة أخرى تقابلا؛ الخليفة وصبي أتاه الله الحكمة. هتف الخليفة وقد أخفى في يده شيئاً:

ـ يا محمد ما في يدي؟

قال الفتى السيد واضاءت في قلبه حقائق مستورة:

ـ ان الله تعالى خلق في بحر قدرته سمكاً يأخذ الغيم منه فتصطاده صقور الملوك فيمتحنوا بها سلالة الأنبياء.

واهتز الخليفة لهذه المفاجأة ان هذا الصبي لأعجوبة... اعجوبة في شجاعته وحكمته وعلمه.. قفز من فوق حصانه وتقدم نحوه وقبّله..

قال باعجاب:

ـ انت ابن الرضا حقاً!

8

احدث وصـول الفـتى العـلوي هـزّة فـي بـغداد، وكـانت القـصور العـباسية المـتناثرة عـلى ضـفاف دجـلة فـي الكـرخ والرصافة والشماسية قد اقلقها حضوره، لقد تنفست الصعداء بالامس بعد أن توفي الرضا وهو في طريقه الى بغداد، وها هو ابنه قد جاء، ولا أحد يدري ما الذي سيفعله المأمون، فقد طالت استضافته، وفي كل يوم كان المأمـون يـهتم بشأنـه ويـعجب بشخصيته، وكل شيء يمكن تـحمّله ولكـن أن يـقرر المأمـون تزويجه ابنته فهذا أمر لا يطاق... سوف يكون هذا الفتى صـهر الخليفة وقد يسند اليه ولاية العهد كما اسندها إلى والده من قبل وهذا يعني نهاية المجد العباسي!

ـ كلّا!

صرخة تنضح حقداً، ترددت في قصور العباسيين التـي

استحالت الىٰ بيوت كبيوت العناكب.

وفيما كانت السفن الشراعية تنحدر مع المدّ الى مدينة البصرة حاملة المسافرين والتجار، كان رجال البيت العباسي يتقاطرون نحو قصر الخلافة.

كان الخليفة يراقب مياه دجلة وهي تتألق تحت ضوء القمر والأمواج المشوبة بالغرين لا تنفك تتدافع نحو الضفاف لتضخ في الشطآن الروح والخضرة والحياة.

آن للمأمون أن يجلس مسترخياً بين الوسائد الحريرية المحشوة بريش النعام... آن له أن يلعب بلا قلق الشطرنج في رقعة مترامية تمتد من انطاكيا الى صقلّية الى غابات أفريقيا الى الهند وما وراء النهر.

اتخذ رجال البيت العباسي أماكنهم في حضرة الخليفة الشاب وآلاف الاطماع والطموحات والوساوس تموج في عقولهم وقلوبهم... أطماع في الحكم والنفوذ والسيطرة تؤججها غرائز مجنونة..

راح المأمون يتصفح الوجوه المخطوفة والعيون الزائغة قال أحدهم وهو يُلبس كلماته رداء النصيحة:

ـ يا أمير المؤمنين.. نتوسل اليك أن تنقض ما عزمت عليه

من مصاهرة ابـن الرضـا... انك بـهذه الخـطوة تـعرّض مـلكناً للخطر... وأنت تعرف جيداً الدماء أريقت بيننا وبـين العـلويين قديماً وحديثاً..

ومرّت لحظات صمت استأنف الرجل بعدها حديثه وسط صمت مهيب سوى خطى خدم وجواري كـن يـعددن كـؤوس السهرة فالمأمون قرر هذه الليلة أن يسكر على أمواج دجلة.

ـ انك يا أمير المؤمنين قد خرجت عن سيرة الخلفاء مـن قبلك من مطاردة هؤلاء ونفيهم والحطّ من شأنهم، ولقـد كـان عملك مع الرضا محيّراً حتى كفانا الله ذلك بموته وها أنت تريد أن تعيدنا الى غم قد انحسر عنا..

قال المأمون وقد شعر بالغيظ مـن هـذه العـقول التـي لا تريد أن تدرك خططه:

ـ ماذا تريدون؟!

وجاء الجواب في فزع:

ـ اصرف رأيك عن ابن الرضا وانتخب من تشاء من فتية أهل بيتك تراه أهلاً للزواج من كريمتك... اننا اكـثر مـن ثـلاثين ألف[17].

أجاب المأمون:

ـان ماحصل بين البيتين من عداء واحقاد، فأنتم السبب فيه، ولو انكم انصفتم هؤلاء والناس لكانوا أولى بكم.

أما الذين كانوا يفعلون ذلك قبلي فقد كانوا قاطعي رحم..

وأمّا ابو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتفوقه في الفضل والعلم مع صغر سنّه انه بحق اعجوبة.

قال أحدهم مناوراً:

ـان هذا الفتى وإن راقك منه هديه فأنّه صبي لا معرفة له ولا فقه فأمهله ليتأدب، ويتفقه في الدين.. ثم اصنع ما ترى بعد ذلك.

أدرك المأمون أنهم سوف يرتكبون حماقة خلال هذه الفترة، فقد يغتالونه بطريقة ما وتنسف جميع خططه الذكية فأجاب بحزم:

ـأني أعرف منكم بهذا الفتى.. ان اهل هذا البيت علمهم من الله.. ومواده والهامه... لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب.. فان شئتم فامتحنوه.. عندها ستعرفون الحقيقة..

برقت في العيون الزائغة نشوة نصر وقال بعضهم بارتياح:

ـهذا ما كنا نبغي.. قد رضينا يا أمير المؤمنين، فخلّ بيننا

وبينه لننصب من يسأله بحضرتك.

وغادر رجال البيت العباسي تاركين المأمون وحيداً.. راح ينظر الى دجلة تتراكض مياهه نحو الخليج البعيد..

تناول كأساً بلورياً مليء بذلك السائل الوردي وأفرغه في جوفه وشعر بدبيب آلاف النمال في رأسه المكدود المشحون بآلاف الهواجس والدسائس... وكان آخر ما برق في ذهنه المخدّر اسم «بابك الخرّمي»[18] الذي راح يثير القلاقل في آذربيجان وأرمينيا، فكانت آخر فكرة تطفح في رأسه الغارق في الغدر واللذة انه كيف سيمدّ الثائر البيزنطي «توماس»[19] بالسلاح.

9

- يحيى بن اكثم قاضى القضاة هو وحده الذي سينقذنا من هذه الورطة.

هتف بذلك شاب عباسي وهو يفرك يديه.. وبرقت العيون... نعم ليس هناك من يفوقه علماً... وفقهاً وهرعوا اليه كغرقىٰ الى طوق نجاة...

لم يوافق قاضي القضاة أن يزج بنفسه في هذه المعمعة ولكن نظرات الغلام[20] الشركسي الذي قدمه العباسيون هدية اليه لم تعد تقاوم، فوافق بعد أن عرض عليه أيضاً مبالغ كبيرة إذا حسم الصراع لصالحهم.

وتقرّر اليوم المصيري بعد أيام وأن يحشر الناس ضحى وانهمك ابن أكثم لاعداد سؤاله وحباله، فالسؤال يجب أن يكون محيّراً غامضاً عويصاً، خاصّة وأن هذا الفتى هو ابن

الرضا ذاك الذي حير علماء عصره... انه لن ينسى جلسات مرو وقد هزم زعماء المذاهب أمامه.. ولكن هناك بريق أمل في النصر فمحمد لم يزل صبياً ثم أنه لم ير أباه منذ أن كان في السادسة من عمره فهل يعقل أن يكون قد ورث علم أبيه؟!..

ـ لا لا ... انه سينتصر ولاشك وسيكون انتصاره مدوّياً، فهزيمة هذا الصبي تعني هزيمة الملايين ممن تؤمن بامامته أجل سيكون انتصاره اكثر دوّياً من كل الحروب التي خاضها العباسيون ضد ابناء علي.. حروب امتدت لعشرات السنين.. حروب بعدد الثورات التي فجّرها الثائرون من ابناء فاطمة منذ لحظة عاشوراء وحتى الآن..

لم ينس ابن اكثم انه يغامر بمستقبله وهو يقبل عروض العباسيين.. لقد فرض هيبته على أساس فقهه وعلومه وهزيمته يعني نهايته.. ولكن كيف يمكن أن يهزم أمام صبي حتى لو كان ابن الرضا؟!

يكفي أن يجرّه الى سؤال واحد مما حار فيه الفقهاء سؤال هو فى الحقيقة استدراج الى غابة من الاحتمالات التي يضيع فيها فقه الفقية وعلم العالم..

عندما اطلّ اليوم الموعود لم يبق من أهل بغداد من لم

يسمع بذلك النبأ الهام. كان بعض الشيعة يتوجس خيفة مما سيحدث.. ان المجد العلوي، والتاريخ الشيعي كله يتوقف على نتائج هذا اليوم المصيري الخطير.

وهمس شيخ وهو يتطلع الى الطريق التي سيسلكها الصبي في طريقه الىٰ القصر:

ـ الحمد لله الذي جعل أعداءنا من الحمقىٰ.

ـ ماذا تعني يا أبي؟

قال الابن بدهشة!

أجاب الشيخ:

ـ يا بني لا تعرف القاضي.. هذا رجال ضال يحلّ ما حرّم الله ويعمل عمل قوم لوط... ان الله سينصر ابن الرضا فالله لا يرضى لعباده الكفر.

اتمنى يا بني أن أنظر الى وجوه العباسيين وقد هزموا.

ـ يا أبتي أنه صبي لم يبلغ العاشرة كما سمعت!!

ـ يا بني ان الله اعلم حيث يجعل رسالته.. يا بني ألم تقرأ القرآن... ألم يكلم عيسى بني اسرائيل في المهد.. الم يقل الله سبحانه ليحيى: خذ الكتاب بقوّة.. الم يقل: وآتيناه الحكم صبياً؟!

وقف الى جانبهما رجل متوسط العمر كان هو الآخر يتطلع الى الشخص الذي تدين له الملايين بالولاء وترى طاعته واجبة كطاعة النبي!

لم يكن من أهل بغداد حتى انه لم يذهب بعد الى خان المسافرين أو الى حمام من حمامات هذه المدينة.

هتف أحدهم:

ـ لقد جاء... جاء ابن الرضا.

وتطلّع الناس اليه باجلال..

وظهر الفتى راكباً بغلة شهباء ليس في حركتها ابهة الخيل ولا ذلّة الحمير كان يحيي الجماهير المحتشدة حوله بأدب.. لكنه عندما حاذى الرجل الغريب توقف ثم لوى زمام بغلته نحوه وقال:

ـ يا قاسم بن عبد الرحمن! أبشراً منا نتبعه إنّا إذن لفي ضلال وسُعُر.

وبهت الرجل! كيف يقرأ الصبي خلجات القلوب وما يموج في دنيا النفوس؟!.. انه ولاشك ساحر!!

قال الفتىٰ السيد قبل أن يستأنف طريقه:

ـ أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر.

واستأنف طريقه تحفّه الجماهير.. اما قاسم الرجل الغريب في المدينة فقد اطرق برأسه وقد اهتزّت اعماقه بشدّة كما لو أن زلزالاً يضربها بعنف...

قال الشيخ:

ـ انك غريب كما أرى؟!

ـ نعم لقد وصلت قبل ساعة..

ـ بغداد مدينة يضيع فيها الغرباء.. هيّا بنا الى منزلي.

تدخل الأبن:

ـ أنسيت ما جئت اليه يا أبه.. لقد أذن الخليفة اذناً عامّاً.

قال الغريب:

ـ هلّ لي أن اعرف ماذا يجري؟

قال الشيخ:

ـ اليوم يمتحنون هذا الفتى اعني ابن الرضا.. يمتحنه قاضي القضاة.

قال الغريب:

ـ ما وقوفكم هنا هيّا.

في الطريق قال الرجل الغريب:

ـ أنا رجل زيدي المذهب.. رأيت الناس يسرعون في

المشي ويعدون فسألت عن السبب فقالوا: سيطلع ابن الرضا.

قلت في نفسي والله لانظرنّ اليه.. لكنني عندما رأيته قلت في نفسي: اللعنة على اصحاب الامامة.. كيف يقولون ان الله افترض طاعة هذا؟! فرأيتم ماذا حصل؟ خاطبني باسمي وقرأ تلك الآية ايضاً... انني اشعر بالنور يضيء قلبي... ان انساناً يقرأ ما يدور في خاطري مرّتين لا بدّ وأن يكون إماماً[21].

واعتصم الشيخ بالصمت خاشعاً لايات الله.

10

كان بلاط الخلافة في ذلك الضحى يموج بالجماهير.. الجميع يترقبون اللحظة المصيرية.. العباسيون كانوا متأكدين من الفوز الساحق.. الفوز الذي لن يبقي لمنافسيهم من العلويين وقواعدهم الشعبية أية ركيزة في الدفاع بعد اليوم.. الامام هو أعلم أهل زمانه فاذا انهارت هذه المقولة عندها سينهار الصرح الامامي بأسره..

كانت هناك عشرات القلوب المتوجسة من هذا الصراع والنزال، والأمرّ من كل ذلك أن يُهزم هذا الفتى السيد الوقور على يد رجل لا يستحي من شيبته وهو يقترف أعمال قوم لوط!

غصّت القاعة بالناس الوافدين وفيهم الكثيرون من أعلام الفكر، كان المأمون قد أمر بان يفرش لصهره المنتخب دست تحفّه وسائد عن اليمين وعن الشمال، وأخذ الفتى الأسمر

مكانه متواضعاً ينظر ببراءة وطهر الى الناس.. عيناه تشعان بالأمل والايمان.. لقد كان منظره آية من آيات الله.

في هذا العالم الذي يعج بالفساد... والشرور تتنفس روح مستها السماء فكانت رمزاً للطهر والنقاء.

هيمن صمت مهيب وكانت العيون تتجه نحو نقطة في جوار المأمون.. ونظر ابن أكثم الى الخليفة وهزّ المأمون رأسه موافقاً لقد بدأت اللحظة المصيرية..

وقال قاضي القضاة بلهجة فيها تكلّف:

ـ أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟

وأجاب الذي عنده علم الكتاب:

ـ سل إن شئت.

وهنا القى ابن اكثم سؤاله وحباله:

ـ ما تقول يا ابا جعفر في محرم قتل صيداً.

ما هو موقف الشريعة من انسان ارتدى لباس الاحرام في الحج ثم قتل حيواناً؟

كان السؤال ذكياً جداً فهو وأن بدا في ظاهره بسيطاً لكنه ينطوي على مزالق كثيرة والاجابة عليه يعني السقوط في الفخ! ومن ثم الانقضاض عليه.

وحبست الحشود انفاسها... ان مصير الامامة بل المجد العلوي بأسره كله معلق بين شفتي ذلك الفتى الاسمر. وجاء الجواب:

اسئلة مدوّية تكشف عن عقلية فذة وعبقرية ليست مستمدّة من عناصر التراب:

ـ هل قتله في الحرم المكّي أم خارجه؟

هل كان عالماً بحرمته أم جاهلاً؟

قتله عمداً أو خطأً؟

هل كان القاتل صغيراً أم كبيراً؟

هل كان عبداً أم حراً؟

مبتدئاً بالقتل كان أم معيداً؟

هل كان الصيد من الطيور أو غيرها؟

هل كان الصيد صغيراً أم كبيراً؟

أكان القاتل مصراً على ما فعل أو نادماً؟

هل فعل ذلك ليلاً أم نهاراً؟

هل كان محرماً للحج أم للعمرة؟

وبهت القاضي.. كان سيل الاسئلة من القوّة بحيث يكتسح كل من يحاول الجدل..

وتألقت شمس الحقيقة.. الحقيقة التي أريد لها أن تنطفىء.. كان الصمت معبّراً..

التفت المأمون الى الفتى السيد قائلاً:

ـ أتخطب يا أبا جعفر.

وأطرق الفتى برأسه حياءً

أردف المأمون:

ـ اخطب جعلت فداك لنفسك فقد رضيتك وأنا مزوّجك ابنتي أم الفضل!.. حتى لو رغم قوم لذلك.

نهض الفتى الاسمر ليقول بصوت هادىء:

ـ الحمد لله إقراراً بنعمته، ولا إله الّا الله إخلاصاً لوحدانيّته، وصلى الله على سيّد بريّته، والاصفياء من عترته.. أما بعد.. فقد كان من فضل الله على الانام أن أغناهم بالحلال عن الحرام، فقال سبحانه: «وانكحوا الايامى منكم والصالحين عبادكم وامائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم»..

ثم ان محمد بن علي بن موسى يخطب أم الفضل بنت عبدالله المأمون وقد بذل لها من الصداق مهر جدّته فاطمة بنت محمد خمسمائة درهم جياداً...

والتفت الى المأمون:

ـ فهل زوّجتني يا أمير المؤمنين على هذا الصداق؟

أجاب الخليفة:

ـ نعم! قد زوجتك يا أبا جعفر على الصداق المذكور فهل قبلت النكاح؟

ـ قد قبلت ذلك ورضيت به[22].

وارتفعت زغاريد الفرح، وأمر المأمون الّا يتفرّق الحاضرون، ومرّت لحظات سُمع بعدها اصوات تشبه أصوات الملّاحين في محاوراتهم، ثم ظهر مجموعة من الخدم يسحبون بحبال من الحرير سفينة صيغت من الفضة الخالصة، وقد ملئت عطراً غالياً، فخضبت لحى الحضور ثم نصبت الموائد وتناول الناس طعام الغداء.. وكان يوماً بهيجاً وكان الشيعة أكثر الناس سعادة فقد سطعت شمس الحقيقة وتمزقت شباك العناكب.. ثم توّج ذلك كله بأن اصبح امامهم صهراً للخليفة وعندها يستطيعون أن يتنفسوا الصعداء.. وربما اصبح ولياً للعهد من يدري؟ خاصّة وقد تسامع الناس ما قاله الخليفة:

ـ أحببت أن أكون جدّاً لامرىء ولده رسوله الله وعلي ابن أبي طالب[23].

11

غادر الناس بلاط المأمون ولا حديث لهم سوى هذه المعجزة الانسانية كيف يمكن لصبي لم يبلغ الحلم أن يكون له كل هذا العلم وهذا المنطق الفياض بل أن بعضهم كان مشدوداً اليه طوال الوقت كما تنجذب فراشة مبهورة بالنور الى شمعة متوهجة.. إن سرّاً ما يكمن في هذه النفس الطاهرة وتمتم أحدهم كلمات السماء:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوّة وآيتناه الحكم صبياً...»

كم شكك الواقفة في إمامة والده اذ اجتاز الاربعين ولم يرزق ولداً حتى اذا اطل هذا الصبي اذا به يكون آية إذ يكلم الناس في المهد صبيا!

لم يبق في البلاط سوى رجال الدولة عندما أمر المأمون كاتبه الخاص ان يستعد لتسجيل ما سيقوله صهره.

قال المأمون متوددا:

-إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الفقه فيما فصلته من وجوه قتل الصيد لنعلمه ونستفيده.

قال الفتى وقد تفجّرت ينابيع الحكمة:

-ان المحرم اذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها فعليه شاة.

فاذا اصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً.

فاذا قتل فرخاً في الحِل فعليه حمل قد فطم من اللبن وليست عليه القيمة لانه في الحل.

واذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ.

وان كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة.

وإن كان نعامة فعليه «بدنة»[24]، فإن لم يقدر فاطعام ستين مسكيناً فان لم يقدر فليصم ثمانية عشر يوماً.

وإن كان بقرة فعليه بقرة، فاذا لم يقدر فليطعم ثلاثين مسكيناً فإن لم يقدر فليصم تسعة أيام.

فإن قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة.

واذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه، وكان

احرامه بالحج نحره بمنى حيث ينحر الناس.

وان كان احرامه بالعمرة نحره بمكة فى فناء الكعبة ويتصدق بمثل ثمنه حتى يكون مضاعفاً.

وكذلك اذا اصاب أرنباً أو ثعلباً فعليه شاة، ويتصدّق بمثل ثمن شاة.

وإن قتل حماماً من حمام الحرم فعليه درهم يتصدق به ودرهم يشتري به علفاً لحمام الحرم، وفي الفرخ نصف درهم، وفي البيضة ربع درهم وكل ما اتىٰ به المحرم بجهالة أو خطأ فلا شيء عليه الّا الصيد فان عليه فيه الفداء أكان بجهالة أم علم وبخطأ أم بعمد.

وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء وفي العمد له المأثم وهو موضوع ساقط عنه في الخطأ.

والكفارة على الحر في نفسه، وعلى السيد في عبده.

والصغير لا كفارة عليه، وهي على الكبير واجبة.

والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة وان دل على الصيد وهو محرم، وقتل الصيد فعليه الفداء.

وان أصابه ليلاً في أوكارها خطأ فلا شيء عليه إن لم

يتصيّد فإن تصيّد بليل فعليه الفداء.

وفغر المأمون فاه دهشة ودوّت في اعماق ابن اكثم آيات الله: حاشا لله ما هذا بشر إن هذا الّا ملك كريم!!

وتنفس الكاتب الهواء وقد توقف ينبوع الحكمة عن القررات ولحاجة ما قال المأمون:

ـ ألا تسأله يا أبا جعفر؟!

التفت الفتى الاسمر الى قاضي قضاة الدولة الاسلامية وقال بأدب الأنبياء:

ـ أسألك؟

قال ابن اكثم وقد استحال الى تلميذ لا يفقه من العلم شيئاً:

ـ ذاك اليك جعلت فإن عرفت جواب ما تسألني عنه والّا استفدت منك.

وطرح الامام سؤالاً ينسجم مع ثقافة بغداد التي بدأت تسطر حكاياتها الاسطورية كان السؤال يشبه لغزاً مثيراً:

ـ اخبرني عن رجل نظر الى امرأة في بدء النهار فكانت نظرته اليها حراماً عليه!

فلما كان الضحى حلّت له!

فلما حان الظهر حرمت عليه!

فلما كان وقت العصر حلّت له!

فلما دخل عليه وقت العشاء الآخرة حلّت له!

فلما انتصف الليل حرمت عليه!

فلما طلع الفجر حلّت!

فما حال هذه المرأة، وبماذا حلّت به؟ وحرمت عليه؟

قال القاضي الكبير مستسلماً:

ـ والله لا أهتدي الى جواب هذا السؤال ولا أعرف الوجه فيه فإن رأيت أن تفيدنا به؟

قال الذي أوتي علم الكتاب:

ـ هذه أمة لرجل من الناس، نظر اليها رجل اجنبي (نظرة مريبة) في أول النهار فكان نظره اليها حراماً عليه.

فلما ارتفع النهار ابتاعها من سيدها فحلت له.

فلما كان الظهر اعتقها فحرمت عليه.

فلما كان وقت العصر تزوجها فحلت له.

فلما كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه.

فلما كان وقت العشاء الآخر كفّر عن الظهار فحلّت له.

فلما كان نصف الليل طلقها واحدة فحرمت عليه.

فلما كان الفجر راجعها فحلّت له.

ودهش رجال البيت العباسي وشعروا أنهم أمام ظاهرة هي معجزة خارقة وآية سماوية تخشع لها القلوب والعقول..

قال المأمون:

ـ هل فيكم أحد يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب أو خطر له شيء مما قاله فيما تقدّم من السؤال؟!

قالوا مبهورين:

ـ لا والله ان امير المؤمنين لأعلم.

واستحال ابن اكثم الذي كان يعدّ نفسه اكبر شخصية علمية الى تلميذ يودّ أن يغترف من بحر العلم الالهي قال متسائلاً:

ـ ما تقول يا أبا جعفر في رجل نكح امرأة على زنا هل يحلّ له أن يتزوجها؟

قال الفتى الاسمر:

يدعها حتى تستبرئ من نطفته ونطفة غيره فقد تكون قد فعلت ذلك مع غيره ثم يمكنه أن يتزوجها اذا اراد ذلك..

انما مثلها مثل نخلة أكل رجل منها حراماً، ثم اشتراها فأكل منها حلالاً.

هتف المأمون مأخوذاً:

ـ أحسنت يا أبا جعفر أحسن الله اليك[25].

12

ـ الله! ما هو الله!..

لماذا يخشع الانسان للرعد وهو يجلجل في الفضاء اللانهائي.. لماذا يعبد الشمس! يظنها مصدر الحياة.. ولماذا يهيم بالقمر يعدّه مصدر الجلال، أو يرنو الى النجم يظنه منبع الوجود، ولماذا يعشق النار يرى فيها الاله الذي خلقه.. الله ما هو؟ أين؟ كيف هو؟

تلك هواجس النفس، وهي تبحث عن مبدأها ومنتهاها.. كانت كلمات محمد وهو يهبط من فوق سفح الجبل مشرقة كالشمس أضاءت القلوب، جبّارة كالسيل حطمت في طريقها الاوثان العربية.. ولكنّ لم يكن يمرّ جيل واحد حتى ضاعت الصلاة التي اضاءت الفكر الانساني... وجاءت اجيال ضائعة لا تكاد تعرف عن عقيدتها شيئاً..

لم يكن الحسين نبياً لقد كان سبط نبي هو آخر الانبياء وكان يقول وهو يتأمل السماء:

ـ كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك؟!

متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك؟!

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك.

عميت عين لا تراك[26].

ولكن هذه الامّة التي انطفأت فيها جذوة الحقيقة وهي تلهب الوجدان البشري، قد ضلّت في وساوسها وتصوّراتها البشرية المحدودة..

وفي وسط هذه الحيرة وقد هبّت افكار من الشرق والغرب ومن وساوس النفس الضائعة.. اصبح الله كياناً له هيئة البشر؟ فلأنه بصير تكون له عين! ولأنه سميع وجب أن يكون له أذن!!

كان الفتى يستعد لسفر العودة الى مدينة جدّه عندما جاءه رجال سمعوا بالمعجزة..

السماء مشحونة بالغيوم والغيوم مخزونة بالبروق والرعود وجلجل الصوت المهيب صوت الرعد الذي تخشع له القلوب وتجمعت في عيني الفتى الدموع دموع الخشية

والاندكاك بهذا العالم الذي لا يعدو الّا أن يكون انعكاساً لمبدأ الوجود ورتّل بصوت فيه حزن المطر:

ـ ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله والله شديد المحال.

كانوا ثلاثة قال الأول:

ـ أخبرني عن الرب له أسماء وصفات في كتابه؟ فأسماؤه وصفاته هي هو؟

أجاب الذي أوتي العلم صبياً:

ـ إنّ بهذا الكلام وجهين:

إن كنت تقول: هو هي، أي إنه ذو عدد وكثرة فتعالى الله عن ذلك.

وإن كنت تقول: لم تزل هذه الصفات والأسماء «فإن لم تزل يحتمل معنيين:

لم تزل عنده في علمه وهو مستحقها فنعم.

وإن كنت تقول: لم يزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها، فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله، ولا خلق، ثم خلقها وسيلة بينة وبين خلقه يتضرّعون بها اليه

ويعبدونه وهي ذكره،.. وكان الله ولا ذكر.

والمذكور بالذكر هو الله القديم.

الذي لم يـزل والأسـماء والصـفات مـخلوقات المـعاني والمعنى بها هو الله الذي لا يليق به الاخـتلاف والائـتلاف انـما يختلف ويأتلف المتجزئ.

فلا يقال: الله مؤتلف، ولا الله كثير، ولا قليل.

ولكنه القديم في ذاته لأن ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد لا يتجزّأ ولا متوَهم بالقلّة والكثرة...

وكل متجزئ متوهم بالقلّة والكثرة فهو مخلوق دالّ على خالق له.

فقولك: إن الله قدير لانه لا يـعجزه شـئ، فـنفيت بـالكلمة العجز وجعلت العجز سواه.

وكذلك قولك: عالم انما نـفيت بـالكلمة الجـهل، وجـعلت الجهل سواه فـإذا أفـنى الله الاشـياء أفـنى الصـور الهـجاء. ولا ينقطع ولا يزال من لم يزل عالماً.

قال الرجل مبهوراً:

ـ فكيف سمّي سميعاً؟

أجاب محمد:

ـ لانــه لا يـخفى عـليه مـا يـدرك بـالاسماع، ولم نـصفه بالسمع المعقول في الرأس.

وكذلك سـميناه بـصيراً، لأنـه لا يـخفى عـليه مـا يـدرك بالابصار من لون وشخص وغير ذلك، ولم نصفه بنظر العين.

وكـذلك سـميناه لطـيفاً لعـلمه بـالشيء اللـطيف مـثل البعوضة وأصغر من ذلك.

يعلم كل شيء فيها... لعلمنا ان خـالقها لطـيف بـلا كـيف وانما الكيفيّة للمخلوق المكيّف.

وكذلك سمّي ربنا قـوياً لا بـقوّة البـطش المـعروف مـن المخلوقات، ولو كـانت قـوته كـذلك لوقـع التشـبيه، ولاحـتمل الزيادة. والذي يحتمل الزيادة يحتمل النقصان.

والنـاقص لا يكـون قـديماً، وغـير القـديم يكـون عـاجزاً فتبارك الله ربّنا وتعالى...

لا شبه له ولا ضد، ولا ند، ولا كيف، ولا نهاية.

يعجز الفكر عن تصوّره.

والخيال أن يحدّه.

والضمير أن يكيّفه[27]..

وطأطأ الرجل رأسه اجلالاً.

وانبرى الاخر فقال:

ـ لكنّي أتوهم شيئاً.

قال الفتى وقد أضاءت قلبه آيات السماء:

ـ لا تحدّه حدود، فكلما تخيلت شيئاً أو توهمته فهو غيره.. أنه لا يشبهه شيء.. لا تدركه الأوهام، وهو خلاف ما يتصوّر في الخيال.

ان تصوّرات الانسان انما تشمل الاشياء المتصوّرة فقط.

قال الرجل:

ـ هل يمكننا أن نقول عنه بأنه شيء.

ـ نعم.. بشرط تجريده عن حدّ التعطيل، وحدّ التشبيه.

فهو شيء ولكن ليس كهذه الاشياء.

قال الرجل الثالث:

ـ ما معنى قوله تعالى: «لا تدركه الابصار، وهو يدرك الابصار»؟

ـ ان أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند، والبلدان التي لم تدخلها، ولم تدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون؟!

ان الخيال البشري أكثر انطلاقاً من البصر ومع ذلك فهو عاجز عن تصوّر الله فكيف بالبصر؟!

ان الخيال هو الآخر محدود وإن كان أبعد مدى من العين.

ـ ما معنى الواحد؟

ـ الذي اجتمعت الألسن عليه بالتوحيد كما قال الله عز وجل: «ولئن سألتم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله»[28].

عندما غادر الرجل مقرّ اقامته على شاطئ دجلة نهض يودّعهم ثم انصرف الى الشاطئ فجلس ينظر الى المياه المتدافعة عند قدميه، قال رجل جاء يرافقه:

ـ إن شيعتك يدعون بانك تعلم وزن مياه دجلة وتعلم ما فيها؟!

أجاب وهو يتأمل بعوضة قريبة منه:

ـ ألا يقدر الله تعالى أن يفوض علم ذلك الى بعوضة من خلقه أم لا؟

قال الرجل:

ـ نعم ان الله على كل شيء قدير.

ـ أنا أكرم عند الله من بعوضة ومن أكثر خلقه[29].

وكانت مياه دجلة تلامس قدميه تغسلهما بمحبة.

13

عاد الفتى الى مدينة جدّه.. هناك يستطيع أن يتنفس ملء رئتيه في تلك الربوع الطاهرة يشعر أن روحه تحلّق في الفضاء الذي كان جبريل يغمره بجناحيه..

عقد زوجته الصغيرة ومضى فبغداد ليست موطنه أنه فيها بجسده أما قلبه فهناك يخفق.. قرب مرقد الرسول.

أنه يختنق في بغداد في قصورها المرمرية التي تنهض على ضفاف دجلة بينما بيوت الفقراء الطيبين ما تزال تبنى من الطين وجريد النخل.. بغداد مدينة عجيبة.. يشكو فيها الثري بطنته وينفق أموالاً لشراء الدواء الذي يسهل هضم اللحم المتكدّس في معدته وامعائه، أما الفقراء فيتضورون جوعاً قرب الجسور والقناطر وفي ظلال القصور حيث تنهض جدران من الصخور القاسية!

ودجلة يمضي بين النخيل غير مكترث لما يجري حوله من أهوال فنار الثورة في أرمينيا وآذربيجان ما تزال تتأجج.

وحرب أهلية في مصر، وثورة في اليمن بسبب الظلم.

وثورات في أفريقيا، وحروب قبلية في الاندلس.. وانهار من دماء ودموع...

في سنة ٢٠٧ اغتيل فاتح بغداد «طاهر بن الحسين»[30] في ظروف غامضة، ولكن الخليفة يعرف كيف يعالج الامور فنصب ابنه حاكماً على خراسان مكانه، كما توفي «الفرّاء»[31] «والواقدي»، كما ولقي الارمني توماس مصرعه، اما الفضل الربيع فقد توفي بعد سبعين سنة امضى نصفها في الدسائس والمؤامرات.

وفي الديار المصرية توفيت السيدة نفيسة.. وفي بغداد توفي موسى بن الأمين فبكت من أجله زبيدة، وما أنفك التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك وفي ذلك الزمن الذي يموج بأهله كان محمد يمثل نقطة السلام الكامل انه في قلب الاعصار تماماً.

واذا كان المأمون قد انتخب طريقه وهو طريق والده فدخل هو الآخر عالم الف ليلة وليلة، فان ذلك الفتى السيد الذي بلغ من العمر الآن أربعة عشرة سنة ما يزال يمضي على خطى -

آبائه الطاهرين.. ما يزال هو هو.. يمضي كل يوم في طريقه الى مسجد جدّه الذي ما يزال مفعماً بشذى جبريل.. لم يكن يكترث للدنيا التي فتحت أبوابها عليه فقد أصبح صهر الخليفة السابع.. نجل الرشيد، ومرتبة السنوي يكفل له حياة باذخة..

المأمون يسير في موكبه في شوارع بغداد وساحاتها مزركش الثياب تتصدّر عمامته زمرّدة أو درّة أو حجارة كريمة، بينما أصطفت الجماهير تهتف مهللة له أنه يرى الحياة في هذه الدنيا الفاتنة وما عداها فناء وخواء..

لكن الذين يَرون أبعد من ذلك فلن تستهويهم هذه المظاهر انها مجرّد كذب وخداع وسراب يحسبه الظمآن ماء..

ولقد كان ذلك الفتى الذي بلغ الحلم قد ولج العالم الحقيقي حيث تفور ينابيع الوجود، وتُشرق الانوار الخالدة.. وقد اتسقت في نفسه حركة العالم نحو الغاية النهائية، ولذا كان ذلك الفتى السيد ينبض حناناً للانسانية كل الانسانية.. ويرى في الكائنات قلوباً تخفق وروحاً يتنفس وانفاساً تتردد.

من أجل هذا كان الذين يقابلونه يغمرهم شعور بالسكينة والسلام، والذين تصيبهم مصيبة اليه يهرعون.. فكان يحقق أمل هذا ولا يخيب أمنيات ذاك...

ما الذي دهى ذلك الرجل؟..

ماذا دهاه؟ يكاد لا يبصر خطاه.. لكأن أزقة المدينة متاهات يضيع فيها القلب الذي ينبض بالحب..

فؤاده يخفق، يكاد يحطم قضبان القفص الصدري ليتحرّر من هذا السجن ليستحيل الى طائر ابيض يحلّق بين الغيوم.

الذين يعرفون ذلك العلوي الشاب، يعرفون حكاية حبّه.. واصعب شيء على المحبّ أن يهوى حبيباً لا يستطيع له وصلا.. الذين يعرفونه يعرفون سرّه.. سرّ حبّه لتلك الجارية الوضيئة.. لقد خفق قلبه لها، وهو لا يستطيع أن يملكها.. ليس في حوزته مالاً يكفيه لقد حطّم هارون الرشيد حياة العلويين، فالعلوي نخلة معطاء فاذا منعت الماء قوت تموت لكنها تموت واقفة ولا يكتشف المرء ذلك الّا فجأة.. لكأنه «سليمان»[32] يموت واقفاً ولا يكشف عن موته سوى دابّة الأرض تأكل منسأته..

كانت سياسة هارون أن يجوع أبناء علي حتى الموت أن يجوعوا فلا هم لهم الّا رغيف خبز يتأودون به، وان يعروا حتى لا يجدوا ثوباً يسترون به أجسادهم وأن لا يتزوجوا حتى ينقطع نسلهم..

فمن أين لذلك العلوي ما يمكنه أن يملك تلك الفتاة التي دخلت روحه وخفق لها قلبه؟

وفيما كانت قصور الخلافة في بغداد تموج بالجواري الحسان كان ذلك الشاب قد خفق قلبه لجارية لا يستطيع أن يتزوجها لأنه لا يستطيع أن يملكها فيعتقها كان يمرّ في ذلك الزقاق كل يوم وربما تعلل بما يجعله ينتظر نظرة منها أو اليها ثم يعود أدراجه ليذهب مرّة أخرى..

ولكن ماذا دهاه ذلك الأصيل انه لا يكاد يبصر طريقه.. لقد اظلمت عليه الدنيا.. اهكذا يفعل الحب في النفوس، فإذا غاب وجه الحبيب انطفأت الشمس، وأنكدرت النجوم وأَفَل القمر؟!

ماذا حصل.. هل وقع لها مكروه؟.. لم يكن هناك مفر من ان يسأل الجيران.

قالوا له: لقد بيعت.

وخفق قلبه كطبل مجنون:

ـ من اشتراها؟!

ـ لا نعرف.

وغامت المرئيات أما عينيه، ماذا يفعل؟ وأين يبحث عنها؟ وقادته قدماه الى منزل في المدينة.. فيه قلب ينبض

بالحب حب الناس جميعاً.

هتف عندما رآه:

ـ لقد بيعت!!

كانت صرخة تلخص مأساته كلّها، وابتسم محمد قائلاً:

ـ هل تدري من اشتراها؟

قال العاشق بحزن مرير:

ـ كلّا.

قال الامام الشاب:

ـ هلمّ معي.

فانطلقا.. حتى اذا وصلا بستاناً مليئاً بالظلال الوارفة دخلاه فاذا منزل منيف في وسطه.. منزل يشبه محارة في الشاطئ.

ومضى الامام باتجاه القصر الجميل.. ظن المحب أن هذه الدار هي لسيد الجارية الجديد.. فقال:

ـ وكيف أدخل داراً هي ليست لي ولم يؤذن؟!

ـ ادخل!

قالها الامام بحزم..

ودخل.. كان المنزل هادئاً، وحانت منه التفاتة فاذا فتاة

جالسة كلؤلؤة وخفق قلبه لها وقال الامام وقد اشرقت في محيّاه ابتسامة:

ـ أتعرفها؟

وأطرق العاشق:

ـ نعم يا سيدي.

قال الإمام سعيداً:

ـ هي لك.. والقصر أيضاً وحتى البستان والغلّة التي فيه... بل وجميع ما في القصر.. فأقم هنا[33].

واهتزّ المحبّ.. كمن يخرج من الظلمات الى النور.. من اليأس القاتل الى الأمل بالحياة السعيدة هتف من اعمق نقطة فى قلبه:

ـ ما أخطأ الذي دعاك جواداً.

ومضى الامام خارج القصر وقد تفجّرت ينابيع السعادة في المكان.

14

بغداد سكر وعربدة، وقصر الخلافة يموج بـالدسائس، والمأمون الذي دانت له الدنيا سكران.. اسكرته السلطة.. كـان جالساً وقد حملت اليه موائد الطعام وفيها ألوان والوان، ومعه وزير مغمور[34]، وقائد الجبهة[35] في معارك أرمينيا.

المأمون ينظر الىٰ الحياة كرقعة شطرنج تمتد لتشمل كل مساحة الأرض يهيمن عليها، وينظر الىٰ الناس فيراهـم بـيادق شطرنج ليس غير.

أجلس المأمون وزيره الاحول الىٰ جانبه، فاستعر الحقد في قلب القائد العسكري فقال:

ـ أنا أكثر من هذا نفعاً لك.. يا أمير المؤمنين!

قال الأحول وقد تحرك السم في داخله هو الآخر:

ـ يا أمير المؤمنين انه يتمنىٰ خراب ملكك.

نهض المأمون وهو ينظر باحتقار وفي قرارة نفسه أن هذا القائد يجب أن يموت... سيرسل اليه من يجهض عليه بختيشوع النصراني[36] مختص بقبض الأرواح..

انتقل الخليفة الى مجلس الشراب وحيداً علىٰ غير عادته، وأرسل وراء ابن اكثم.. وما أسرع أن جاء رجل بدين تفوح منه رائحة الاثم، وتبرق عينيه الجاحظتين اشعة الحمىٰ.. حمى الشهوات المحرّمة ـ كان يجتاز أروقة القصر ـ عندما وقعت عيناه علىٰ غلام... ضجت في اعماقه شهوة آثمة، وفقد توازنه فاتجه اليه وقرص خده بشدّة وكانت الشهوة تضج في الاعماق المظلمة كشيطان مريد.. وانتبه الىٰ نفسه فجأة ماذا يفعل.. ماذا لو رآه المأمون؟!

اسرع الخطىٰ الىٰ حيث جلس المأمون وأمامه كؤوس الخمر... ودخل الغلام يحمل المزيد.. ورأىٰ المأمون أثر قرصة على الخد الاسيل فادرك القصّة!

قال معرّضاً بابن اكثم:

ـ اتعرف الذي قال هذا البيت من الشعر:

قاض يرىٰ الحدّ في الزناء ولا يرىٰ علىٰ من يلوط من بأس!!

قال القاضي:

ـأو ما يعرف أمير المؤمنين من القائل؟؟

ـلا.

ـقاله الشاعر احمد بن نعيم الذي يقول:

لا احسب الجور ينقضي وعلىٰ الامة وال من آل عباس[37]

وأطرق الخليفة اشتعلت في اعماقه القصيدة المدوّية:

انـطقني الدهـر بـعد إخـراس لنـائبات اطـلن وسـواس

يـا بـؤس للـدهر لا يـزال كـما يـرفع نـاساً يـحطّ مـن نـاس

لا افـلحت امـة وحـق لهـا بـطول نكس وطـول انـعاس

ترضىٰ بـ«يـحيىٰ» يكون سائسها وليس يـحيىٰ بسـوّاس

قـاض يـرىٰ الحدّ في الزنـاء ولا يـرىٰ مـن يـلوط مـن بـاس

يـحكم للامـرد الغـرير عـلىٰ مـثل جـرير ومـثل عـباس

فـالحمد لله كيف قـد ذهب العدل وقـل الوفـاء فـي النـاس

أمـير يـرتشي وحـاكمنا يـلوط والرأس شـر مـن رأس

لو صـلح الديـن فـاستقام لقـد قـام عـلىٰ النـاس كـل مـقياس

لا احسب الجـور يـنقضي وعـلىٰ الامّـة والٍ مـن آل عـباس

كان المأمون غارقاً في هواجسه ولكنه تمتم قائلاً:

وكنا نرجّىٰ أن نرىٰ العدل ظاهراً فأعـقبنا بـعد الرجـاء قـنوط

متىٰ تـصلح الدنـيا ويـصلح أهـلها وقاضي قضاة المسلمين يـلوط؟!

سكت القاضي وفضل أن ينسحب من المكان، فانحنىٰ مستأذناً، ونظر اليه الخليفة بعينين يطلّ منهما احتقار..

ومضىٰ ابن اكثم خارجاً، وقعت عيناه علىٰ الغلام لكنه مضىٰ في طريقه ولم يجرؤ علىٰ التحرش به، وكان يلعن في نفسه اللحظة التي دخل فيها قصر المأمون فهذا الخليفة لا تعرف قرارته، والأمور تجري بشكل مرعب، ناس يموتون وناس يقتلون.. لا يدري أحد كيف ماتوا ولا كيف يقتلون؟!

عندما ولج قصر القضاء وجد امّة من الناس ينتظرون..

ابن اكثم يعرف كيف يصرف من لا يريده مذموماً مدحوراً وطريقته الامتحان أمام الجميع، فاذا وجد الرجل متضلعاً بالحديث سأله في الفقه، واذا وجده متعمقاً بالفقه سأله عن النحو وقواعد اللغة، وهدفه أن يسقط، كان يشعر باللذة وهو يرىٰ الناس يغادرون المكان وقد دمرهم اليأس.

أجال النظر في الرجال وهو يسأل عن الاقليم الذي قدموا منه قال أحدهم:

ـ من خراسان.

ـ تقدّم للامتحان!

سأله ابن اكثم عن دقائق اللغة والنحو وكان الخراساني

يجيب بطلاقة وسأله في مشكلات الفقه فألفاه عميق الغور.. لهذا قال له:

ـ نظرت في الحديث؟

ـ نعم.

ـ ما تحفظ من الاصول؟

قال الخراساني وهو يسدّد له طعنة نجلاء:

ـ احفظ عن شريك عن أبي اسحاق عن الحارث: ان علياً رجم لوطيّاً[38].

وشعر القاضي بدوي الصاعقة... لقد كانت ضربة أقسىٰ مما سمعها اليوم في قصر المأمون.

وسكت القاضي علىٰ مضض وانسحب من مجلسه مذموماً مدحوراً!

15

لم يكن يوم «السعانين»[39] عيداً رسمياً ولكن اكثر أهل بغداد وخاصّة الشباب منهم لا يفوّتون ذلك اليوم، إذ يتوجه الكثير منهم الى ضواحي المدينة حيث توجد بعض الاديرة وهناك يستمتعون بمنظر الفتيات وهن يحملن كؤوس الخمرة المعتقة ابتهاجاً بذلك اليوم.

كان الخليفة مأخوذاً هو الآخر بمشهد راقص تؤديه عشرون من حسناوات الرومان يحملن أغصان الزيتون وسعفات النخيل وفي اعناقهن صلبان ذهبية وكان منظرهن بتلك الثياب الحريرية المزركشة ساحراً.

المأمون يحتسي منتشياً كؤوس الخمرة، وغمرته حالة النشوة فراح يشدو:

ظـــباء كـــالدنانير مـــلاح فـــي المقاصير

جـلاهن «السـعانين» عـلينا فـي الزنـانير

وقـد رزقـن اصـداغـا كأذنـاب الزرازيـر

واقـبلن بأوسـاط كأوسـاط الزنـابير[40]

وانبرىٰ اسحاق الموصلي فراح يشدو ويداه علىٰ الاوتار فانسابت الحان طروب وبلغ المأمون ذروة النشوة[41].

كان المساء قد غمر القصر وقد غادرت الفتيات منذ فترة ولكـن المـوسيقىٰ لم تكـف.. نـهض المأمـون وهـتف بـمغنيه المفضل:

ـ هيا يا اسحاق.

ـ الىٰ اين يا أمير المؤمنين.

ـ الىٰ قصر ابن سهل.

وادرك اسحاق ان الخليفة قد اشتاق الىٰ زوجـته بـوران حسناء فارس الفاتنة.

استوىٰ المأمون علىٰ سرير مخملي وكان ينتظر بـلهفة قدوم بوران اما اسحق فقد انتحىٰ زاوية وجلس متحفزاً لتـنفيذ أمرما...

وجاءت الفـتاة السـاحرة تـرفل بـثوب حـريري شـفاف فبدت كـحورية.. وجـاءت أبـاريق الخـمر المـعتقة وكـلها مـن

معاصر «قطربل» المشهورة بالكروم.

أضاءت وصائف القصر بعض القناديل كما اضيفت شموع جديدة.. وراحت بوران تتحدث.. بعد أن رحبت برقة بالزائر الكريم.. كانت تعرف كيف تطرب الخليفة لطالما سمعت أباها يوصيها كيف تستأثر بقلب الخليفة من خلال طرائف الأخبار والاشعار فراحت تروي له حكايات اشبه بالاساطير الجميلة، وتنشده شعراً رقيقاً.. ربما مست اناملها البضة العود فيتحد صوتها بالموسيقىٰ المتدفقة عذوبة..

وانتشى المأمون.. حتىٰ ان من يراه يحسبه سعيداً جداً يكاد يطير الىٰ عالم آخر.

احتسىٰ ثلاثة ارطال من الخمرة.. هتف..

ـ يا اسحاق غن لنا لحناً.

اما هو فغاب مع بوران وراء ستائر حريرية ملوّنة حاول أن يعانقها ولكنها تملصت من بين ذراعيه برشاقة ودلال واختفت وراء أحد الأبواب القريبة..

ولم يشأ المأمون مطاردتها لكنه قرر أن يمتلكها في أول فرصة..

رمىٰ بنفسه فوق سجادة فارسية تشبه مرجاً من

الزهور وسرعان ما راح في نوم عميق..

رفض اسحاق مغادرة المكان بحجة ملازمة الخليفة حتى الصباح.

واصدرت عجوز تدير شؤون القصر بعض الأوامر للجواري لترتيب مبيت الخليفة، كما ضوعفت قوّة الحراسة للقصر الذي تشبه جدرانه العالية قلعة حصينة.

فوجيء اسحاق بوصيفة حسناء تقول له:

ـ ان سيدتي تريدك حالاً.. وتقول لا تنس العود.

ونهض اسحاق مأخوذاً.. سوف يسعد بمنادمة حسناء القصر وزوجة الخليفة..

ودخل مغني الخليفة غرفة واسعة تطل علىٰ حدائق القصر علىٰ ضفاف دجلة.. كانت جالسة كعروس البحر.. بين يديها اطباق فاكهة وباقات الزهور..

ملأت قدحاً وناولته اسحاق.. وملأت لنفسها قدحاً وقالت: غن يا موصلي هذا أوان المذاكرة والاخبار.

واندفع اسحاق يروي لها الحكايات الممتعة والاخبار الطريفة وكانت عيدان البخور الهندي تعبق برائحة زكية..

اخذت بوران العود وراحت تغني بصوت كخرير

الجداول، وكانت تمس العود برقة فيتدفق نغم ساحر يتناغم مع صوتها الأخاذ..

وفوجىء اسحاق أنها تحفظ كثيراً من الحانه ومرّت ساعات الليل كطيور مسافرة.. وجاءت المرأة العجوز لتقول:

ـ انه الفجر قد طلع.

ونهضت بوران ثم القت نظرة علىٰ اسحاق وقالت:

ـ استر ما كان منا فان المجالس بالأمانات.. ولك مثلها غداً وبعده.

16

دخل الشاعر الثائر وهو يتوجس خيفة قصر الخليفة.. في البهو المؤدي الىٰ البلاط صادفه رجل كبير الرأس عيناه تقدحان شرراً يرتدي لباس الامراء بالرغم من ملامحه التركية، وتساءل «دعبل» ترىٰ من يكون؟

كان المأمون جالساً عندما دخل الشاعر، ونظر اليه المأمون طويلاً ولعله تساءل عن تلك الروح التي تموج في أهاب هذا الانسان الذي فضل حياة التشرد علىٰ الدعة.. بإمكانه أن يعيش حياة ملؤها الترف والبذخ لو انه مدح العباسيين..

التفت المأمون الىٰ قاضي القضاة وقال له:

ـ هذا دعبل الخزاعي!

ـ ومن لا يعرفه يا أمير المؤمنين!!

قال المأمون وهو قد حرص أن تكون لهجته هادئة:

ـ أما تزال شاكاً يا دعبل؟

ـ ماذا يقصد الخليفة؟!

ـ أنسيت قصيدتك بهذه السرعة؟!

وتظاهر الشاعر بانه لا يدري شيئاً.

قال المأمون:

فمن قائل هذا البيت:

شككت فما أدري أمسقي شربة فأبكيك أم ريب الردى فيهون؟!

قال دعبل:

ـ الناس يقولون اشياء كثيرة.

ـ أي ناس؟ لعلك تقصد أهل قم؟

واشتعلت في ذهن الشاعر ذكريات[42] جميلة يوم مرّ بتلك المدينة الطيب أهلها..

أعادته كلمات المأمون الىٰ نفسه:

ـ وسيأتيك من أخبارها ما يسرّك.. والآن اليّ برائيتك

وانتفض دعبل:

ـ أية رائية يا أمير المؤمنين؟!

ـ اتجحدها يا دعبل وأنا أحفظها بيتاً بيتاً لكني أودّ أن اسمعها منك.

ـ والأمان؟

ـ لقد فعلت ذلك.

وانطلق الشاعر المشرّد يشدو بقصيدة مطاردة:

تأسفت جارتي لما رأت زوري

وعدّت الحلم ذنباً غير مغتفر

ترجو الصبا بعدما شابت ذوائبها

وقد جرت طلقاً في حلبة الكبر

أجارتي أن شيب الدهر يعلمني

ذكر المعاد وأرضاني عن القدر

تعمد المأمون أن يهتف بالقاضي:

ـ يا يحيىٰ انظر هل وصل صهري «ابن الرضا»:

ونهض ابن اكثم مجتازاً الرواق الذي يفضي الىٰ بهو كبير حيث يجلس بعض الشخصيات التي تنتظر اذن الدخول علىٰ الخليفة..

عاد قاضي القضاة أدراجه.. ما تزال هناك فرصة للهجوم علىٰ هذا الفتىٰ الذي يهدد البيت العباسي بأسره.. لقد اصبح مركزه في خطر اذا لم يتلافىٰ ما حدث قبل سنوات.. ما يزال رجال البيت العباسي يعلقون الآمال هتف في نفسه:

ـ يا ويلي إذا لم أغلبه..

عندما ولج البلاط كان الشاعر ما يزال يترنّم بقصيدته المتأججة غضباً:

لم يبق حي من الأحياء نعلمه

من ذي يمان ولا بكر ولا مضر

إلّا وهم شركاء في دمائهم

كما تشارك أيسار على جزر

قتلاً وأسراً وتخويفاً ومنهبة

فعل الغزاة بأهل الروم والخزر

أرىٰ أمية معذورين إن قتلوا

ولا أرى لبني العباس من عذر

وتوقف الشاعر يلتقط انفاسه ثم هدر قائلاً:

إربع بطوس علىٰ قبر الزكي بها

إن كنت تربع من دين علىٰ وطر

قبران في طوس: خير الناس كلّهم

وقبر شرّهم.. هذا من العبرِ [43]

ماينفع الرجس من قرب الزكي له ولا

على الزكي بقربِ الرجس من ضرر

هيهات كل امرىء رهن بما كسبت

له يـــداه فـــخذ مـــن ذاك أو فـــذر

وانفجر المأمون لكنه عرف كيف يستثمر هذه اللحظات إعلامياً ضرب بعمامته الأرض وهتف:

ـ صدقت والله يا دعبل![44]

وفي ذلك المساء كان القدر ينسج لقاءً آخر بين الفتىٰ المعجزة وبين أعلىٰ شخصية علمية في البلاد.. ما يزال ابن اكثم يتذكر كل تفاصيل اللقاء الذي حصل قبل سبعة أعوام.. من أجل هذا كان ابن اكثم قاضي القضاة ينتظر يوم الثأر.. لقد أخفق في الفقه وهزم هزيمة ساحقة..

من أجل هذا فكر في سلاح أمضىٰ... سلاح الحديث... المجلس يكتظ بشخصيات الحكم وأعيان البلد، وقد جلس الامام في وقار... فتى امتلأت نفسه بالحقيقة الكبرىٰ.. انه لا يرى الأشياء إلّا علىٰ حقيقتها وجوهرها... الظامئون وحدهم يرون السراب فيظنونه مياه.. أمّا الذي ارتوىٰ من الكوثر فلا يخدعه السراب.. والذي اكتشف سرّ الوجود وسمع خطاه وهو يتحرك صوب غايته، لن يصغي الىٰ ضوضاء الطبول.

قال الذي أحل ما حرّم الله:

ـ ما تقول يا بن رسول الله في الخبر الذي روي: انه نزل جبرئيل علىٰ رسول الله وقال: يا محمد: إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك سل أبا بكر هل هو علي راض؟! فاني عنه راض!

قال الذي أوتي علم الكتاب:

ـ يجب علىٰ صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «قد كثرت علي الكذابة وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوه وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به..».

وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله قال الله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾[45] فالله عزوجل خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل مكنون سرّه هذا مستحيل في المعقول.

قال يحيىٰ: لقد روي: «ان مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرئيل وميكائيل في السماء».

قال الامام:

ـ وهذا أيضاً يجب أن ينظر فيه لأن جبرئيل وميكائيل

ملكان مقرّبان لم يعصيا الله قط، ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة أما هما «أبو بكر وعمر» فقد اشركا بالله عز وجل وإن اسلما بعد الشرك، وكان أكثر أيامهما في الشرك بالله، فمحال أن يشبها بهما.

قال يحيى:

ـ وقد روي: «انهما سيّدا كهول أهل الجنة» فما تقول في ذلك؟

ـ هذا مستحيل أيضاً لأن أهل الجنة كلهم يكونون شباباً ولا يكون فيهما كهل.. وهذا خبر وضعه بنوا أمية ضد الخبر الذي قاله رسول الله ﷺ في الحسن والحسين بأنهما سيّدا شباب أهل الجنة.

قال يحيىٰ:

ـ وقد روى أيضاً: «ان عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة»؟

قال الامام:

ـ وهذا أيضاً محال لأن في الجنة ملائكة الله المقرّبين، وآدم ومحمد وجميع الأنبياء والمرسلين لا تضيء بأنوارهم حتى تضيء بنور عمر؟!!

قال يحيىٰ:

وقد روي «أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر»؟

قال الامام:

ـ لكن أبا بكر أفضل من عمر قال علىٰ المنبر: «ان لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فسدّدوني».

قال يحيىٰ:

ـ لقد روى أن النبي ﷺ قال: «لو لم ابعث لبعث عمر»؟

قال حفيد محمد:

ـ كتاب الله اصدق من هذا الحديث يقول الله سبحانه: ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾[46] فقد أخذ الله ميثاق النبيين فكيف يمكن أن يبدّل ميثاقه؟!! والانبياء لم يشركوا بالله لحظة واحدة وقد قال رسول الله ﷺ: «نبئت وآدم بين الروح والجسد».

قال يحيىٰ:

ـ وقد روي أيضاً: «ما احتبس الوحي عني قط إلّا ظننته قد نزل علىٰ آل الخطاب»؟

قال الذي أتاه الحكم صبيا:

ـ هذا محال أيضاً لأنه لا يجوز أن يشك النبي ﷺ في

نبوّته قال الله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[47] فكيف يمكن أن تتنقل النبوّة ممن اصطفاه الله تعالى الىٰ من أشرك به؟؟!

قال ابن اكثم وهو يلقي آخر حباله:

ـ روي أن النبي ﷺ قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه إلّا عمر»؟

قال الفتىٰ السيد:

ـ وهذا محال أيضاً، إن الله تعالى يقول: «ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» فأخبر سبحانه أنه لا يعذّب أحداً ما دام رسول الله فيهم، وما داموا يستغفرون الله تعالىٰ.

وهزم القاضي ليكون هذا اللقاء بداية النهاية لمجد نهض علىٰ جرف هار فانهار به.

17

لم تكن بغداد على استعداد أن تشهد مراسم زواج سيد البيت العلوي من ابنة الخليفة العباسي فمثل هذه الخطوة ستكون مغامرة لا تعرف عواقبها..

العباسيون في بغداد ناقمون، والمأمون وحده ينظر الىٰ الافق البعيد فيرىٰ المدن الاسلامية تتأهب للثورة.. وماحصل في قم قبل اسابيع تطور خطير فهذه المدينة تدين بالولاء لعلي وأبناء علي.

ولكن مالذي جعل هذا السيد العلوي الذي تخفق له قلوب الملايين بالحب.. ما الذي جعله يوافق علىٰ فكرة المصاهرة؟

ان هذا الشاب كأسلافه ينظر الىٰ المديات البعيدة ولقد آن للجرح الشيعي النازف أن يهدأ قليلاً.. آن للمشردين من أبناء علي أن ينعموا بقسط من الراحة.. آن لهم أن يلتقطوا أنفاسهم

دون خوف.. وهل هناك من يصنع لهم هذه الظلال الوارفة المفعمة بالأمن والحرّية والسلام غير زواج إمامهم من ابنة الخليفة؟ سيكون له من النفوذ الرسمي في الدولة ما يمنع الذئاب العباسية من التهام لحوم الابرياء.

ولكن محمد ليس من أولئك الذين تبهرهم مظاهر الحكم والسلطة والنفوذ ولا من الذين يخطف الذهب عيونهم وعقولهم.. فلقد ظل هو هو محتفظاً بتوازنه في زمن الويلات والزلازل والانحطاط... ها هو يشق طريقه في بغداد متجهاً الىٰ تكريت المكان الذي انتخبه الخليفة لزفاف ابنته..

الجماهير وخاصّةً الفقراء تحتف بهذا الشاب المدني الذي لا يرىٰ للذهب ميزة اعلىٰ من الحجر.. جنود مسلحون يحرسون موكبه بناءً على أوامر من الخليفة فقد يرتكب عباسي ما حماقة ويقدم علىٰ اغتياله أو يدس له أحد «العيارين»[48] لتصفيته مقابل مبلغ من المال.. وفي مدينة مثل بغداد حيث المال معبود الناس كل شيء ممكن أن يحصل وفي أية لحظة..

الشاب العلوي يهب الفقراء المال والأمل.. الأمل بوجود قدر من الانسانية في عالم تعوي فيه الذئاب بعد أن غابت شمس المحبّة..

وغمغم رجل رأىٰ مجده وهو يراقب موكبه المهيب:

ـ لن يعود ابن الرضا الىٰ وطنه... في هذه النعمة وهذا البذخ ينسىٰ الانسان أشياء كثيرة.

وعندما صار العلوي المدني قريباً من الرجل خاطبه وقد قرأ ما اشتعل في خاطره:

ـ يا حسين! خبز الشعير وملح الجريش في حرم جدّي رسول الله أحبّ إليّ مما تراني فيه.

وهتف حسين وقد هزّته الكلمات:

ـ الله اعلم حيث يجعل رسالته!

السفن الشراعية تمخر مياه دجلة الغرينية باتجاه الشمال وهدفها تكريت. فشخصيات بغداد وأهل النفوذ فيها ممن يهمهم رضا المأمون يحرصون علىٰ حضور مراسم الزواج، فقد تقررت ساعة الزفاف في قصر علىٰ شطآن دجلة.

كان قصر أحمد بن يوسف يتألق تلك الليلة من صفر الخير سنة ٢١٠هـ.

الصباح يغمر المكان باشعته الذهبية و«الهاشمي» الذي وصل توّاً يلج القصر لأداء كلمات التهنئة بالزواج كان الرجل يشعر بالعطش بعد أن تناول في ليلته الفائتة دواء فجرّ في قلبه

شعوراً رهيباً بالعطش...

ولكن ما باله وقد تيبست شفتاه يطلب كأساً من المياه الباردة؟؟

انه لا يريد أن يموت فالعريس قد يدس له سمّ في أية لحظة ويقضي نحبه.. انه يعرفَ ألاعيب ساسة بني العباس.. سوف يتحمل الظمأ من أجل أن يبقىٰ حيّا.. عندما يغادر القصر سيشرب دجلة كلها حتى يرتوي..

تأمل الامام ضيفه الظامىء وقال:

ـ أراك عطشاناً؟

ـ أجاب متوجساً:

ـ أجل.

نادىٰ الامام علىٰ غلام:

ـ يا غلام اسقنا ماءً.

قال الرجل في نفسه وقد غمرته حالة من الأسى: سوف يأتون بماء مسموم[49]..

قرأ الإمام خلجات الرجل الخائف فخاطب الغلام الذي جاء يحمل الماء:

ـ ناولني الماء.

وراح الامام يرتشف من الماء، ثم ناوله لضيفه الذي

شعر بالطمأنينة ومرّ وقت، واشتعل الظمأ مرّة أُخرىٰ فهتف الامام بالغلام ليأتي بالماء فارتشف منه قليلاً وسلّمه الىٰ ضيفه ليشربه بهناء.. وارتوىٰ الضيف ماءً قراحاً.

وكانت نفسه تمتلأ اجلالاً لهذا الشاب العلوي الذي يضحي بنفسه حفاظاً علىٰ ارواح الآخرين.. ولكنه ظل طوال الوقت يتساءل: هل حقاً ما يقوله الشيعة بان الامام يعرف خلجات النفس؟! أمر عجيب حقاً!!

وفي الأثناء دخل رجل مهنئاً:

ـ لقد عظمت علينا بركة هذا اليوم.

ردّ الامام وقد تفجرت الحكمة بين جوانحه:

ـ الله وحده مصدر البركات... فقل عظمت بركات الله علينا فيه.

قال الرجل.

ـ والايام؟ ماذا أقول فيها.

ـ قل فيها خيراً تلقىٰ خيراً.

ـ لن أخالف ذلك يا سيدي.

ـ اذن ترشد ولاترىٰ إلّا خيراً[50].

وغمرت اشعة الصباح البهو وكانت مياه دجلة تتألق تحت الضوء الغامر وهي تندفع باتجاه بغداد.

18

انصرمت الايام والاسابيع والشهور.. مضت تتدافع مع مياه دجلة الغرينية وهي تنطلق الىٰ بغداد ومنها الىٰ البصرة فالخليج، وأطل ذوالقعدة بهلاله كزورق أمل وجاشت في النفوس هواجس الرحيل.. الرحيل الىٰ البيت العتيق..

وشهد دجلة تلك الايام زوارق تنساب مع الامواج من تكريت الىٰ بغداد فالامام ينوي الرحيل.

العباسيون يتنفسون الصعداء وهم يرون محمد الجواد يغادر العراق.. الشمس تجنح للمغيب وبغداد تودع ابن الرضا كان موكبه يسلك سكة الكوفة المؤدية الىٰ باب الكوفة والجماهير تحتف به تتطلع الىٰ انسان هو ابن لمحمد وكان بعضهم يتمتم: حاشا لله ما هذا بشر إن هذا إلّا ملك كريم..

هاهو يمرّ بدار المسيب.. ويترجل السيد العلوي عند

المسجد.. يلج بوقار باحته وما تزال الجماهير تحتف به..

كانت شجرة نبق تنشر اغصانها فوق أرضية المسجد الظليل تقدم الذي مسته السماء الىٰ جذعها.. ومن كوز ملىء بمياه دجلة انثالت المياه علىٰ الوجه الاسمر وعلىٰ اليدين الىٰ المرفقين، وكانت المياه وهي تتساقط تغور عند جذع النبقة الىٰ حيث أعراقها والجذور... وولج السيد العلوي حرم المسجد ليؤم الجموع التي اصطفت خلفه وانبثقت ينابيع الصلاة كما أرادها الله.. وفاحت كلمات الحمد والاخلاص والنصر كعبير قادم من جنّات الفردوس..

انتهت الصلاة وغادر الامام حرم المسجد حتىٰ اذا مرّ بالنبقة اهتزت وربت واثمرت نبقاً طيباً!

مبارك اسمك يا بن محمد مبارك اسمك يا محمد مباركة كفك والمياه التي تساقط من جبينك تستحيل الىٰ فاكهة يأكل منها الناس[51].

الطريق الىٰ مكّة يمرّ بأودية كثيرة وقرىٰ، والجادّة التي تنطلق فيها قافلة السيد العلوي هي جادّة الحج الاكبر والنداء الابراهيمي يدوّي في أذن الاجيال..

وولىٰ الامام وجهه شطر المسجد الحرام وقلبه يتجه الىٰ

الفضاء اللامتناهي وقد اضطرمت الحقيقة الكبرىٰ فيه وكلمات كنبع يتدفق بأمل تنساب من فوق الشفاه:

ـ يا من لا شبيه له ولا مثال..

انت الله لا اله إلّا أنت..

ولا خالق إلّا أنت..

تفني المخلوقين وتبقىٰ..

حلمت عمن عصاك..

وفي المغفرة رضاك[52]..

القافلة تطوي الأودية في طريقها الىٰ البيت العتيق، وفي موسم الحج الاكبر شوهد الامام يطوف أول بيت وضع للناس يستلم الركن اليماني في كل شوط، ثم مسّ الحجر الأسود بكفه يمسح وجهه بها، حتىٰ اذا وصل مقام ابراهيم صلى خلفه ركعتين ثم قبل جدران الكعبة الجنوبية وكشف عن صدره وشرع كفيه الىٰ السماء، وقد بدت جدران الكعبة تمس السموات وكلمات الدعاء تنثال كنبع بارد، ثم انطلق الىٰ بئر زمزم فارتشف من مائها، وأرخى الدلو مرّة أخرىٰ ليصب قدراً من المياه التي نبعت عند قدمي اسماعيل علىٰ رأسه... ثم راح يطوف مرّة أخرىٰ كفراشة تدور حول شمعة أو قنديل...

زجاجة، هي الكعبة فيها مصباح يوقد من شجرة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور علىٰ نور..

انطوىٰ موسم الحج وانطلقت القافلة الىٰ الشمال نحو مدينة النخيل وحيث تظلل سعفاتها ضريح آخر الانبياء في تأريخ الانسان.

حطت القافلة رحالها في الطريق.. وبركت النوق تلتقط انفاسها في الصحراء.. صحراء يسيح فيها البصر حتىٰ تلتقى سمرة البيداء مع أفق السماء..

أعظم ما في الانسان انه يختصر العالم بأسره.. اعجب مافيه عيناه اللتان تطويان المرئيات علىٰ اتساعها.. واسمىٰ مافيه ذلك الجزء النابض في صدره كيف يتفتح ليستغرق الوجود، كيف تتفجر فيه ينابيع الحبّ.. حبّ الحياة والوجود..

ومدّ الخوان ليجلس الجميع الىٰ المائدة لا فرق بين عربي وأعجمي وصهر الخليفة بين فتى افريقي.. لقد وسع الجميع قلبُ الانسان الذي مسته السماء.. حتىٰ اذا شبعوا وأراد الغلام جمع فتات الطعام قال الامام:

ـ ما كان في الصحراء فدعه ولو فخذ شاة، وما كان في البيت فتتبعه والقطه[53]..

وتعلم الغلام ثقافة الاسلام فالطعام في الصحراء يبقىٰ فهناك الطيور والحيوانات التي تبحث عن رزقها..

أما الطعام في البيت فله آداب غير آداب الأكل في الصحراء..

وقال له رجل:

ـ ان حاكم سجستان جعلت فداك يتولاّكم أهل البيت ويحبّكم..

وعليَّ في ديوانه خراج، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تكتب اليه بالاحسان الي؟

ـ ما اسمه؟

ـ الحسين بن عبدالله النيسابوري.

ـ انني لا أعرفه.

ـ جعلت فداك انه يعرفكم ومن محبيكم أهل البيت وكتابك ينفعني..

وكتب الامام:

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فإن موصل كتابي هذا ذكر عنك

مذهباً جميلاً.. وان لك من عملك إلّا ما

احسنت فيه فأحسن الىٰ اخوانك.. واعلم

أن الله عز وجل سائلك عن مثاقيل الذرة

والخردل[54]..

وانطلقت القافلة تطوي الاودية حتىٰ اذا وصلت المدينة وجد فيها أمّة يبكون قال:

ـ ما خطبكم؟

أجاب الحجيج بضراعة:

ـ نهبت أموالنا وأخذ متاعنا.. دهمنا اللصوص وقطاع الطرق وجرّدونا من كل شيء.

والتفت الامام الىٰ موفق:

ـ اعطهم كساءاً وما يحتاجون من المال وعادت الابتسامة الىٰ الوجوه الحزينة[55]..

19

اعلن عن موعد زفاف بوران حسناء فارس واثرىٰ عروس في بغداد، كان المأمون قد عاد توّاً من الشماسية حيث بدأ العمل في بناء مرصد فلكي فيها.. وكان يحمل معه رقعة مطوية.. نشرها وراح يحدّق فيها وقد ظهرت فيها البقاع الواسعة التي تدين له بالطاعة، ولم تكن الرقعة سوىٰ أول خريطة صنعت للعالم حملت اسمه[56]..

وجهت الدعوات الرسمية لعشرات الشخصيات، وبدأ توافدها من كل أنحاء البلاد، وكان قصر المأمون الجديد كصدفة عملاقة تتألق بآلاف اللآلئ.. سبعة آلاف صبية وثلاثون ألف صبي[57] يدورون ويدورون كالفراشات علىٰ أرض خضراء في قصر مهيب يحسبه المرء من بناء الجن.

وكانت أروقة القصر مزينة بتصاوير من الذهب

وتماثيل الرخام الشفاف، وكانت الموسيقىٰ تصدح ذلك المساء، ولم تكف إلّا بعد بدء توافد شخصيات الدولة، وكان الخليفة قد اعدّ استقبالاً خاصاً لصهره الذي عرف عنه تقواه حتىٰ عرف بالتقي..

ترىٰ ما الذي يريده المأمون من وراء ذلك الاستقبال.. كيف يوصد هذا الشاب في مثل هذا السن قلبه أمام الحياة اللاهية؟!

ـ أمر عجيب؟! لقد حيّرني ابن الرضا..

قالها المأمون بعد أن اطربه «مخارق» بصوته الشجي.

قال المغني:

ـ أنا اكفيك أمره!

ولما اعلن الحاجب عن قدوم صهر الخليفة كان المأمون قد اصدر أوامره باجراء استقبال خاص.. اذ اصطفت مئة حسناء تبهر العقول بجمال خلاّب وقفن كالزهور وفي ايديهن كؤوس بلورية ملأىٰ بالجواهر والاحجار الكريمة..

وجاء الشاب الذي اتقىٰ الله فملأ قلبه بالحب الحقيقي..

اجتاز الطريق ثابتاً قوياً تقياً لا يرىٰ في كل هذا الحسن الخلاّب سوىٰ سراب يحسبه الظمآن ماء ليس في كل ما يرىٰ

جمال حقيقي... ليس هناك من ألق صادق في هذه النفوس المنطفئة..

والذين يكتشفون الجمال الحقيقي لن يلتفتوا الى البريق الكاذب مهما خلب الأبصار.

وعندما استوىٰ الشاب في مكانه المخصص له أومأ الخليفة لمغنيه: لقد أن حانت اللحظة المناسبة..

جلس مخارق وقد مست لحيته الطويلة الشعثاء خيوط عوده الهندي..

اطلق آهته الآسرة وشهق شهقته المعروفة وانطلق يغني بصوته الطروب الذي كان يندمج مع موسيقاه الساحرة.

كان الشاب الذي اتقىٰ فآتاه الله الحكمة يحدّق في نقطة ما علىٰ أرضية البلاط.. الله وحده الذي يراقب الاعماق.. كان الجميع يتمايلون يميناً وشمالاً وقد أسرتهم الاصوات الساحرة التي تنطلق من الأوتار..

اما محمد فقد بدا ساكناً ثابتاً كنقطة مغمورة بالطمأنينة الخالدة... رفع الامام رأسه ونظر الىٰ تلك اللحية التي بدت كخيوط العنكبوت وقال مخاطباً الساحر:

ـ اتق الله ياذا العثنون!

أمر عجيب.. الكلمات الواثقة المفعمة بتقوىٰ الله تنفذ في قلب مخارق... تشلّ كل جوارحه ويديه الشيطانيتين سقط المضراب من يده وسقط العود الهندي.. وظل ينظر ببلاهة الىٰ من حوله.. لقد انقلب السحر علىٰ الساحر وتجلّت كرامة الانسان التقي[58].

لم يسمح المأمون لهذا المشهد المدّمر بالاستمرار اذ جاء حرس غلاظ حملوا مخارق وخيوطه وعصيّه واستأنفت مراسم الزواج وكانت الجواري كالأقمار والغلمان يدورون كفراشات في يوم ربيعي، وقد امتلأ الفضاء بأريج العطور وعبير الازهار.

ولكن ما الذي جعل هذا الشاب المدني يدير وجهه عن هذه الدنيا الزاخرة بالمتع واللذائذ؟! ما الذي جعله يولّي وجهه شطر المسجد الحرام كلما وجد فرصة لذلك؟!

هل ملأت الحقيقة الكبرى وجوده فلم يعد يشاهد غيرها ولا يشعر بالسكينة إلّا بالاندماج فيها والاندكاك معها.

ليس في كل هذا البهرج البراق من الدنيا سوىٰ الزيف.. سوى زبد الحياة.. وان القلب المفعم بالحب الالهي لهو الحياة الحقيقية.

كان الخليفة غارقاً حتىٰ هامته بالملذات لقد اسكرته نشوة الملك وهذه الحسان يرقص بين يديه..

ونهض الذي ناهز الاربعين ليدخل علىٰ زوجته الجديدة بوران.

كانت حسناء فارس جالسة فوق بساط منسوج من الذهب فجلس الىٰ جانبها وجاء أبوها وقد أوتي من الكنوز ما ضاقت بها خزائنه فنثر عليهما ثلاثمئة لؤلؤة وزن الواحدة منها مثقال، واستقرت اللآلىء المتساقطة فوق البساط الذي تألقت فيه الألوان، وكان منظراً يخطف بالابصار مدّ العريس يده والتقط لؤلؤة وقال:

ـ لكأن أبا نؤاس شاهد مجلسنا هذا عندما قال يصف الخمر:

كأن صغرى وكبرىٰ من فواقعها

حصباء در علىٰ أرض من الذهب

وكانت جواري القصر يرقصن والسيدات ينظرن الىٰ بوران العروس التي بلغ مهرها مليون دينار[59].. وفيما كانت ليلة زفاف الخليفة تتوهج بالذهب وتتألق باللؤلؤ كانت هناك مدينة في الشرق تئن تحت وطأة ضريبة الخراج التي تكاد تحلب دماءهم.

20

كما البركان يتشظىٰ لهباً، ثارت مدينة قم غضباً..

ضريبة الخراج وقد بلغت مليوني درهم.. كان الخليفة يرمي من وراء ذلك الى ارهاقها لأنه يعرف أن أهلها اذا شبعوا فسوف يتحدثون في أمور كثيرة!

اندلع البركان، واعلن خلع المأمون رسمياً.. واهتزت الأرض وكانت صيحات «يحيىٰ بن عمران» تدوّي في الفضاء واندفعت خيول الخليفة تهلك الحرث والنسل، واشتعلت نار الحرب.. وهوىٰ القائد الثائر، وانتهت الثورة..

وصدرت أوامر من بغداد بتهديم سور المدينة الثائرة ومضاعفة الضريبة الىٰ سبعة ملايين درهم[60]..

لم تكن قم تدفع ضريبة الخراج فقط كانت في الحقيقة تدفع ضريبة الولاء لأهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس

وطهرهم تطهيراً.

ووصلت الانباء الحزينة بغداد وكتب الامام الىٰ رجل هداه الله[61]..

ـ«قد فهمت ما ذكرت من أمر القميين خلصهم الله وفرّج عنهم وسررتني[62] بما ذكرت سرّك الله بالجنّة ورضي عنك برضائي عنك، وأنا ارجو من الله العفو والرأفة وأقول حسبنا الله ونعم الوكيل»[63]..

وفي ذلك العام كان المأمون جذلان فرحاً وقد اقبلت عليه الدنيا من كل صوب..

وقع ابراهيم عمه في قبضته فاذا هو فأر مذعور يلتمس العفو فأراد قتله ولكن له حنجرة وصوت طروب فلم لا يجعله مغنياً للقصر؟! خاصّة وإن علية[64] عمته وشقيقة ابراهيم قد ماتت... وهاهو نصر بن شبث زعيم القيسية في شمال الشام يستسلم فيرسل الىٰ بغداد اسيراً ثم لتنقطع أخباره الىٰ الأبد[65].

وبدأت محنة «خلق القرآن» وامتحان الفقهاء؛ القرآن مخلوق أم غير مخلوق، قديم أم حادث، ويبدأ فصل جديد..

ومثلما يغلي المرجل وتفور المياه اندلعت الثورات هنا وهناك.. فالثورة في أذربيجان ما تزال مستمرة ثم اندلعت

ثورة في مصر بقيادة عبدالله بن السري وثورة في اليمن بقيادة محمد الاحمر العين، ثم يعلن الفلاحون في دلتا مصر الثورة بسبب ضريبة الخراج، ثم تشتعل حرب العصبيّات بين اليمانية والقيسية.

أما مدينة قم فما تزال تلعق جراحها وتئن تحت وطأة الضرائب الظالمة.. وقد بدا الليل عباسياً طويلاً.

ودخل رجل مشرّد[66] كان يرىٰ ملامح المهدي في وجهه محمد همس بأمل:

ـ إني لأرجو أن تكون القائم من أهل البيت الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت حوراً وظلماً.

أجاب الذي أوتي الحكم صبيا:

ـ يا أباالقاسم ما منّا إلّا وهو قائم بأمر الله عز وجل وهادٍ الىٰ دين الله ولكن القائم الذي يطهر الله عز وجل به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها عدلاً وقسطا هو الذي تخفىٰ علىٰ الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته هو سمي رسول الله وكنيه وهو تطوى له الأرض، ويذلّ له كل صعب ويجتمع اليه أصحاب عدّة أهل بدر ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض...

سوف يستمر الليل ايها الحسني المشرّد ثم يأتي يوم الخلاص وعندها تتطهر الأرض فتشرق بنور ربّها.

وفي ذلك الليل البهيم رأىٰ السيّد المدني فتاة سمراء تقول: أنا جمانة من ذرّية عمار بن ياسر قال الامام لصاحبه:

ـ لقد وصلت قافلة فيها رقيق بينهن فتاة سمراء اسمها جمانة وهذه ستون ديناراً[67]..

قال الرجل:

ـ وكيف لي تمييزها بين الجواري؟!

ـ اذا رأيتها وجدتها صدّيقة..

وأضاءت البيت روح جديدة لقد وجد الامام فتاته التي كان ينتظرها فتاة فيها روح الأنوثة وانسانية المرأة وحنان الزوجات والأمهات.

وانفجر بركان الحقد في نفس ابنة الخليفة التي اسرعت الىٰ أبيها تريد الانتقام.. أن هذا العلوي لا يخشىٰ سطوة الخليفة..

قال المأمون وكان يصغي بمرارة:

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟ هل أمنعه من شراء الجواري انظري! في هذا القصر سبعة آلاف جارية..

عودي الىٰ منزلك يا بنيّة.. لا استطيع أن احـرّم عـليه مـا أحلّ الله له... كوني فتاةً عاقلة تفكر فقط بغايات والدها.. هـناك أشياء أهم مما ذكرت..

وعادت المرأة ادراجها تنطوي علىٰ مخزون مـدمّر مـن الحقد والرغبة في الانتقام..

21

ليس سـهلاً عـلى فـتاة اعـتادت الحـياة فـي القـصور.. القصور التي تموج باللذائذ والمتع الحسّية أن تـعيش حـياة لا لهو فيها ولا غناء.. لا ذهب فيها ولا ثراء..

يلتقي نهران هذا ملح أجاج وذاك عذب فرات فإذا بـينهما برزخ لا يبغيان..

الذي اكتشف الحقيقة منذ نعومة اظفاره كيف يطيب له الابتعاد عنها؟.. والذي ملأ النور قلبه كيف يـحيا فـي ظـلمات المادّة المتراكمة؟! والذي تحلق روحه في ملكوت السماء كيف يمكنه العيش في أوحال الطين؟!

هكذا بدأت الحياة الزوجية بين شاب ينظر الىٰ المـديات البعيدة حيث يتطلع الأنبياء، وبين فتاة لا ترىٰ في الحـياة غـير اللهو والجاه والثراء..

بين شاب تتشرب روحه آيات السماء وتراتيل القرآن وبين فتاة كانت حتى الأمس القريب تطرب لغناء اسحاق وعليّة وابن شكلة، هو يريدها أن تكون انساناً، وهي تريد له الحياة الدنيا هو يريد أن يأخذ بيدها الىٰ السماء، وهي تخلد الىٰ الأرض وتريده كما تشاء لا كما يشاء الله ربّ العالمين... هي ابنة الخليفة صاحب الكلمة الأولى في بلاد مترامية الاطراف ابنة السلطان المدّللة التي لا تقيس الاشياء إلّا بوزنها المادّي الكثيف.

وهو ابن محمد بكل ما لهذا النسب من زخم التاريخ وعنفوان الرسالات الالهية، وهو ابن علي بكل مافي هذا النسب من عدالة وانسانية وهو ابن الحسين بكل ما يعنيه الحسين من إباء وشمم وتحدٍّ للطغاة..

بدأت المشكلات العائلية منذ الأيام الأولىٰ للزواج يريدها أن تتسامىٰ علىٰ المادّة وتريده أن يزج نفسه في الصراع المحتدم من أجل الدنيا والنفوذ والسلطان... تريد له الانغماس في المؤامرات وأن يكون حليفاً لابيها ومازاد الطين بلّة انها قد اكتشفت حقيقة مرّة..

انها شجرة لا تورق ولا تثمر.. هاهي الشهور تمرّ..

وليس في الأفق ما يبشر بخير..

حتىٰ ابيها كان ينظر اليها بامتعاض وهو يرىٰ ابنته تتجاهل الهدف الذي من أجله تم الزواج..

أن «أم الفضل» لن تسمو لن تدرك غايات زوجها النبيل.. لن تدرك انسانيته ولن يخفق قلبها بحبه لأنها غريبة عن عالمه ودنياه.. تفصلها عنه مسافات هائلة بالرغم من القرب الظاهري.. السقف الذي يجمعهما معاً..

بغداد غارقة في أوحال اللذة.. لا يرىٰ أهلها من الحياة سوىٰ الخمرة والطعام ولذائذ الجسد الفاني..

الويل لهذه المدينة الداعرة يحرّم قاضي قضاتها المتعة ويبيح اللواط!

وليس في الأسواق مافي أسواق الجواري من ازدهار وحركة ونشاط..

فهذه صوتها جميل تضرب علىٰ العود وتحسن الغناء وتلك تحفظ أخبار الملوك والاساطير، وهذه للفراش وتلك للطهو وتدبير شؤون المنزل.. وضاعت المرأة كأنسان.. ضاعت الفتاة في سوق الجواري، وضاع الانسان في بغداد.. ولم تعد هناك من قيمة سوىٰ للمال أيّاً كان مصدره.. اصبح

هدفاً وغاية أيّاً كانت وسيلته..

في هدأة ليلة من ليالي رجب وفي أخريات فصل الصيف سُمع صوت طفولي في منزل كان يترقب لحظات الميلاد بأمل.. لقد ولد صبي كريم..

كمن لسعتها عقرب نهضت ابنة الخليفة صرخت بجنون:

ـ لا! لن اتحمل اكثر من هذا..

وانطلقت الىٰ قصر ابيها وقد مضت ساعات من الليل كان الخليفة يكرع كؤوس الخمر وحيداً ثملاً.. عيناه تستعران كنافذتين تطلاّن علىٰ الجحيم قالت وهي تتباكى:

ـ انه يشتمني.. ويشتمك بل ويشتم بني العباس جميعاً وانفجر مخزون حقد هائل في أعماق الرجل الذي شرب كؤوس خمرته حتى الثمالة..

كان السيف المعلّق علىٰ الجدار يدعوه للانتقام.. للقتل.. ولم يكن هناك من لحظات للتفكير.. لقد انكشف الوجه الحقيقي لذئب بني العباس سوف يمزقه... هتف بهستيرية وهو يخترط سيفه:

ـ لأمزّقنه..

هل وجدها فرصة للتخلص منه؟ هل كان حقاً ثملاً لا يعي ما يفعل؟!

كان يركض مترنحاً وابنته خلفه وانتحى خادم مذعوراً لا يدري ما الذي سيفعل هذا الرجل الذي بدا كالمجنون... لا أحد يدري ما الذي جرى داخل الحجرة.. ضربات السيف وصيحات الخليفة تعكس هول الجريمة ان هذا الشاب الذي ناهز العشرين يتمزّق تحت ضربات مجنونة لا ترحم..

فرّت أم الفضل لا تطيق أن ترىٰ منظر زوجها القتيل وشعرت بالندم.. نفس المشاعر التي داهمت قابيل بعد أن نفذ جريمته فقتل أخاه..

كان صباحاً مشرقاً ونسائم دجلة النديّة تهبّ من الشواطىء المكتظة بأشجار النخيل..

وجاء ياسر الخادم يرىٰ تفاصيل الجريمة فالفىٰ سيّده يستاك... في يده عود من شجرة «أراك».

وقف الخادم مبهوتاً فقال الامام وقد اشرقت ابتسامة في محيّاه:

ـ أما علم ان لي ناصراً وحاجزاً يمنعه مني؟!

والقىٰ الخادم نظرة في الحجرة فرأىٰ وسادة ممزقة،

فقال:

ـ كان ثملاً لا يعي من حوله ومالذي يفعله.

كان المأمون يستعيد ما حصل ليلة أمس، يعتصر ذاكرته التي شوشها الخمر.. يستعيد لحظات ما حصل.. كان محمد في حجرته.. لم يكن قد نام بعد..

أهوىٰ عليه بالسيف ليمزّقه.. هل كان في حلم.. هل كان كابوساً؟ كم رأىٰ من الكوابيس في هذه الليالي.. كم ارّقته الاحلام لماذا يرىٰ بعض ضحاياه في الحلم.. لماذا يأتيه الفضل بن سهل ولماذا لا يتركه «حميد الطوسي» ينام..

لماذا يرىٰ قصوره تحترق.. وهو يهرب مذعوراً.. آه ما الذ الخمرة بخدرها اللذيذ؟! ولكن ماذا يقول للناس وقد قتل صهره؟!

وهتف ياسر الخادم الذي بعثه ليرىٰ ماذا حصل:

ـ البشرىٰ يا أمير المؤمنين.. البشرىٰ.

ـ ماذا وراءك؟!

ـ وجدته يستاك يرتدي قميصاً.. انه لم يصب بأذىٰ.

ـ كيف وهذه اللعينة تقول أني قتلته.

ـ إنّها تقول الحقيقة.

ـ انني لا اتذكر سوىٰ مجيئها بالأمس وبكاءها وهي تشكوه.

وتظاهر بالارتياح.. بل وهوىٰ ساجداً يشكر الله على الستر ثم قال:

ـ احمل اليه عشرة آلاف دينار ولك الف دينار، ولا تذكر ما حصل لأحد.. وقل له يأتي عندي[68] ..

22

جلس الامام الىٰ جانب الخليفة بما يجعله الرجل الثاني في الدولة.. وبدأت شخصيات الحكم بالتوافد وهي تحيي الخليفة وصهره الأثير.

وعندما انشغل الجميع بأحاديث جانبية بعضها عن انباء انطاكيا الحزينة وقد دمّرها الروم[69].

همس الخليفة معتذراً:

ـ لم أكن أعقل شيئاً مما فعلت.. لا تؤاخذني ولا تعاتبني.

قال الامام:

ـ عندي لك نصيحة.

ـ هاتها يا بن العم.

قال الامام باخلاص:

ـ اشير عليك بترك الشراب المسكر.

قال المأمون:

ـ فداك ابن عمك قد قبلت نصيحتك.

وراح المأمون يختلس النظر وتساءل في نفسه:

هل ذبحه حقاً؟! أم كان وهماً ما فعل.. لقد ظن انه قد مزّقه بل وضع السيد علىٰ رقبته وذبحه من الوريد الىٰ الوريد ولكن ليس هناك من أثر!!

هل شبّه له.. هل أهوىٰ علىٰ الوسائد والفراش مثلاً متصوّراً بأنها محمد؟!

هل وقعت معجزة في هذا الزمن؟!

كان الامام ينظر عبر النوافذ المشرعة وقد تألق نور في عينيه وطافت غيمة حزن فوق جبينه الاسمر، امّا المأمون فقد بدا غارقاً في هواجسه.

أدرك الامام ما يموج في أعماق الخليفة.. فقال بأدب:

ـ عندي عقد تحصّن به نفسك ويحميك من الشرور..

كما انقذني الله منك البارحة.. حتىٰ لو لقيت به جيوش الروم.. فإن احببت بعثت به اليك.

اجاب المأمون وقد انبعث في قلبه أمل في الانتصار على الروم:

ـ نعم.. اكتبه بخطك وابعثه اليّ..

وفي المنزل طلب الامام جلد غزال تهامي وراح يكتب الكلمات المقدسة:

ـ انت الذي خشعت لك الاصوات..

وضلّت فيك الأوهام..

وضاقت دونك الأسباب..

وملأ كل شيء نورك..

ووجل كل شيء منك..

وهرب كل شيء اليك..

وتوكل كل شيء عليك..

وانت الربيع في جلالك..

وأنت البهي في جمالك..

وأنت العظيم في قدرتك..

وأنت الذي لا يدركك شيء..

وأنت العليّ الكبير العظيم ومجيب الدعوات..

قاضي الحاجات.. مفرج الكربات.. وليّ النعمات..

يا من هو في علوّه دان..

وفي دنوه عال..

وفي اشراقه منير..

وفي سلطانه قوي..

وفي ملكه عزيز..

صلّ علىٰ محمد وآل محمد..

واحرس صاحب هذا العقد وهذا الحرز وهذا الكتاب بعينك التي لا تنام، واكنفه بركنك الذي لا يرام.

وارحمه بقدرتك عليه فانه حرزوتك..

وقال مخاطباً ياسر:

ـ احمله الىٰ أمير المؤمنين وقل له يضعه في قصبة من فضة خالصة ولينقش علىٰ القصبة هذه الكلمات:

ـ يا مشهوراً في السموات!

يا مشهوراً في الأرضين!

يا مشهوراً في الدنيا والآخرة.

جهدت الجبابرة والملوك علىٰ اطفاء نورك.

واخماد ذكرك.

فأبيت إلّا أن يتم نورك.

ولو كره المشركون[70].

لم تمض سوىٰ أيام حتىٰ أعلن الخليفة، أنه سيثأر

لأنطاكيا وسيلقن اعداء الاسلام دروس العزة والكرامة.

وبدأت جيوش الاسلام زحفها باتجاه الحدود الشمالية وتساقطت حصون الروم (ملطيه) و (ماجدة) و (سندس) وفتحت مدينة انقرة، وانكفأ الامبراطور «تيئوفيل» خاسئاً وهو حسير.. ولكنه ظل يتربص الفرص للانقضاض مرّة أخرىٰ.

23

ليس هناك ماهو أقسىٰ من حياة المرء مع من لا يحب، ولقد بدا ومنذ الأيام الأولىٰ أن «زينب» بنت المأمون لم تلج قلب ذلك الشاب التقي فهناك من التناقضات ما يحوّل الحياة الىٰ جحيم لا يطاق؛ ومع كذل ذلك فقد كان محمد الذي تجاوز العشرين ربيعاً من عمره قد أبدىٰ صبراً عجيباً في تحمّل زوجة لا تعرف من الحياة غير المال والجاه والنفوذ..

امّا تلك الحياة الهادئة المفعمة بالسكينة والايمان فلم يكن لها معنىٰ في حياتها..

غير أن قدراً ما ساق اليه «جمانة» تلك الفتاة السمراء التي جمعت جمالين جمال الخلق وجمال الخلق والروح... بددت في حضورها الأجواء الملبّدة بالغيوم حتىٰ اذا ولد «علي» أضاءت شمس بهية ملأت المنزل بالنور والدفء..

كان الامام يدرك حراجة موقفه من هذه الزوجة التي لا تعرف أبسط حقوق الزوجية..

ومع ذلك فكان يتحمل مرارة الحياة معها

فقد تثوب الىٰ رشدها.. قد تعود الى ذاتها وفطرتها وتنزاح عن عينيها ظلمات الذهب البرّاق، والنفوذ فترى نور الحقيقة..

انه يدرك مدى احقاد العباسيين الذين ينظرون اليه بعيون كالجمر.. يرون فيه منافساً لهم.. عقبة في طريقهم.

من أجل هذا استأذن الخليفة في الحج مرّة أخرى..

بغداد ايتها المدينة اللعوب... يا غانية الشرق التي لا تصغي الّا للموصلي...

ضاعت في دروبها آيات القرآن.. وأختنق في منائرها صوت الأذان...

من ينظر الى عيني محمد يدرك الاحزان التي تموج في قلبه.. يدرك مأساته كأنسان، وفي غربته يدرك محنة الاسلام.. الاسلام الذي تألقت كلماته فوق سفوح حراء..

من أجل هذا كان محمد يرنو صوب مدينة جدّه العظيم... أدار ظهره لبغداد اللاهية؛ الى مدينة النخيل الى مهبط جبريل

هناك يستطيع أن يتنفس ملء رئتيه هواءً نقياً... بعيداً عن قصور بغداد المليئة بالدسائس والمؤامرات..

لكنه لا يستطيع مغادرة بغداد دون تصريح رسمي سوف يتحمل الغصص من أجل آلاف المشرّدين الذين نعموا قليلاً بدفء السلام.

أم الفضل تكتب الى أبيها تحرّض الذئاب على زوجها... وقد سيطرت عليها حمى الانتقام... في أعماقها ذئب شرير يريد تمزيق كل الاشياء الجميلة..

من أجل هذا كان الشاب العلوي يتطلع الى السماء حيث العالم اللامتناهي ويغمغم بأسى قائلاً:

ـ الفرج بعد المأمون بثلاثين شهراً.

الأفق مشحون بالمؤامرة مترع بالدسائس والاحلام المريضة، وفي مثل هذا العالم القذر كيف يتسنى للانسان الطاهر أن يحيا بسلام؟!

ويتطلّع الامام الى الآفاق البعيدة فيراها تشتعل حرائق.. ودخان يتصاعد في الفضاء يحرق العيون وأنهاراً من دم عبيط...

وخيولاً مجنونة ما انفكت تهزّ الأرض وذئاباً تعوي في

ليل شتائي طويل يئن من زمهرير الرياح.. رياح عاتية.

وفي مثل هذا العالم المثقل بالآثام تنفتح في السماوات كوّة تفضي الى عالم مفعم بالسكينة مغمور بالسلام.. عالم بعيد عن شرور الأرض... عالم ظليل ظلاله وارفة هادئة يزخر بشذى أشجاره الخالدة...

من أجل هذا قال الامام وهو يرنو الى السلام القادم:

ـ الخلاص بعد وفاة المأمون..

والمأمون في طرسوس من شمال سوريا... انه يقترب من الحفرة التي سيسقط فيها.. انه يبحث عن جنته في الأرض وما الأرض الّا بيوت العناكب..

قوّة ما تسوقه الى الهاوية التي سيتردى فيها... انه لا يدرك ذلك فلا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت!

الأشجار تلقي ظلالها فوق النبع والمياه الصافية تتدفق، فيحدث ارتطامها بالصخور صوتاً عذباً يعكس عذوبة المياه نفسها، وكانت نقاط الضوء المتساقطة تتألّق فينبعث منها نور شفاف..

كان المأمون جالساً عند حافة النهر الصغير قريباً من

النبع.. المياه الباردة في ذلك الصيف تغسل قدميه وتشيع في جسده برودة منعشة.

نظر الى رأس أخيه وودّ لو يعرف ما يدور في هذا الرأس الكبير الفارغ؟[71]

وعندما مُدّ الخوان وامتلأ باصناف الطعام قال المأمون:

ـ ما ينقص هذه المائدة؟

قال رجل:

ـ أمير المؤمنين أعلم.

قال الخليفة الذي اقتربت نهايته:

ـ كثة رطب.

وسُمع صهيل خيول البريد وهتف حارس من بعيد:

ـ خيول بريد بغداد.

وجاء جندي يحمل سلتين تطفحان رطباً جنيّاً...

وبرقت فرحة في عيني المأمون، وراح يلتهم حبّاتها باشتهاء.

ولكنه ما أن ارتوى حتى داهمته مشاعر مبهمة وظهرت كآبة همّ ثقيلة فغمغم قائلاً:

ـ ملكت الدنيا وذلت لي الصعاب.. وبلغت آرابي[72].

ها أنا اشتهي رطباً في أرض ليس فيها نخل فيأتيني.. فما الذي بقي لي في هذه الدنيا؟! انني اقترب من النهاية... آه.

لقد انتهى الحلم اللذيذ..

وفي تلك الليلة شعر بالحمى.. وداهمته آلام رهيبة... آلام تشبه سكاكين وخناجر تقطع أمعاءه وكبده.. وتذكر وصيّة صهره الطاهر: لا تعاقر الخمرة!.. آه لو أني سمعت نصيحته ولكن ما قيمة الدنيا دون خمرة وغناء ولهو؟!

وراحت السكاكين والخناجر تمزق أحشاءه بقسوة فظيعة.. فتح عينيه بعد غيبوبة طويلة رأى كثيراً من الوجوه تنظر إليه وعرف أخاه وابنيه وميز وجه الطبيب ابن «ماسويه»...

عندما حلّ المساء والقى الظلام كلاكله كان المأمون قد استعاد قدراً من حيويته.. انها صحوة الموت نظر الى بعض حرسه وأمرهم بايقاد المشاعل في العراء..

وأضاءت آلاف المشاعل.. بددت ليل طرسوس بدت المشاعل كنجوم السماء.. وتصاعد الدخان.. في منتصف الليل كانت تخبو شيئاً فشيئاً.. انطفأت مشاعله... واستحال الجمر المتوهج الى رماد...

زحف «عبدالله» من فراشه.. راح يتمرّغ في الرماد لقد انطوت حياته.. انطفأت كأنطفاء المشاعل واشتعلت في ذاكرته صور ضحاياه.. كم قتل خلال عشرين سنة من حكمه؟

راح يبحلق في السماء المرصعة بالنجوم.. هتف من أعماق روحه الأسيرة:

ـ يا من لا يزول ملكه! ارحم من زال ملكه.

وبدأت لحظات الاحتضار... استحالت الاشياء الى كابوس.. هل هو في حلم مخيف؟

وسمع صوتاً يلقنه كلمات الشهادة.. قل اشهد ان لا اله الّا الله...

ولكنه لا يستطيع.. حتى لسانه خرج عن أوامره...

لم يبق له شيء من مملكته الزائلة.. سينتقل مجده الذي بناه على الجماجم الى غيره.. الثراء والقصور الملك العريض وآلاف الجواري الحسان... آه ما اتفه هذه الدنيا...

وجاء الصوت: قل اشهد أن محمد رسول الله...

آه لا استطيع لا استطيع..

تذكر صهره الطاهر ذلك الشاب الطاهر.. انه قبس من روح محمد... سمع صوتاً آخر أنه يعرفه.. انه صوت الطبيب

ابن ماسوية يقول للذي يلقنه الكلمات المقدسة:

ـ دعه فأنه لا يفرّق في هذه الحال بين ربّه وماني.

وانفجر غيظ فتح عينيه أراد أن يصدر أوامره بالبطش بهذا الطبيب الحقير.. ولكن ياللتعاسة أنه لا يستطيع.. لقد عجز عن الكلام..

اللحظات تمرّ.. والرجل المحتضر يشعر انه يغوص في هوّة بلا قرار.. واضاءت حقيقة خالدة.. آه انه يموت.. يستحيل الى جثة هامدة... لقد انتهى الحلم.

24

عجيب هذا الانسان يرى الحقيقة أمام عينيه فلا يراها.. تتجسد امامه تصرخ به.. لكنه يحسبها بعيدة عنه لا تخصّه ولا تهتف به.. اليس هذا الذي يتمرغ أمامهم في رماد المشاعل ملكاً يحكم نصف العالم؟!

ها هو الآن يودّع الدنيا بكل لذائذها..ها هو الآن يسافر على الرغم منه..ها هي الحقيقة.. الحقيقة الكبرى.. الموت.. نهاية الانسان. المصير الحتم يختطفه كصقر يمسك بعنقه ينتزعه على الرغم منه فلا تجديه نفعاً جيوشه وأمواله وحرسه الخاص!

عجيب أمر هذا الانسان يرى كل شيء أمامه فلا يراه.. وهذه الحقيقة التي يخشع الانسان في حضرتها كيف تتحول الى بريق في عيون الآخرين... بريق يشعل آلاف الاطماع في

عيونهم..

«أبو اسحاق» برأسه الكبير لا يكاد يضمه جلده.. سوف يصبح خليفة البلاد وحاكم العباد وهذه الجيوش الجرّارة تنطلق بأمره!

حتّى «العباس» و«جعفر» لم يكترثا لموت أبيهما كانا مشغولين بالأسلاب بل ان العباس ناقم من ابيه الذي لم يكتب له عهداً بالمنصب الخطير وترك الخلافة لعمّه دون ابنه.. لماذا؟

أبو اسحاق الذي ورث ملامح أمه التركية... هذا الرأس الكبير الذي لم يتعلم بعد حرفاً واحداً كيف سيكون جديراً بأن بالخلافة؟!

أبو اسحاق يدرك أطماع ابن أخيه.. يدرك ما يموج في أعماقه من شهوة الحكم ويعرف أن كثيراً من القادة العسكريين يتمنون أن يصبح العباس خليفة.. يمنّونه الخلافة.. ولكنه يعرف كيف يتصرّف مع هؤلاء.. عندما يعلن العباس بيعته فانهم سوف يبايعون.. لن يعود الى بغداد قبل أن يرتب أمر الجيش ويجعله طوع بنانه.

بغداد تموج بأهلها وقد استعرت حمى الشهوات ودوريات العسكر تجوب الأزقة وقد بدأت اجراءات الخليفة

الجديد، تقبض بقسوة على ازمّة الحكم، ودارت الدنيا دورتها، فخدم القصور أصبحوا سادة وقادة، وما انفكّت الدنيا تمارس لعبتها القديمة مع ابنائها ترفع اناساً وتخفض آخرين..

ودجلة تتدافع امواجه يتعجب من هذه المدينة التي ولدت قبل ألف شهر، ما تزال سكرى بنشوة اللذائذ غافلة عن الذين بدأوا يتوافدون بالمئات والألوف كأن وجوههم المجان المطرّقة، غلاظ الأكباد لقد نحتت الرياح الباردة وجوههم الجامدة فاستحالت قلوبهم الى كتل من الرصاص!

كان الخليفة الجديد الذي سمى نفسه «المعتصم»، منتشياً وهو يصغي الى كلمات الثناء، وقد خضع الجميع في مجلسه، وكان شاعر متكسب يتغنى بقصيدة مدح تافهة وقد اصطف بعض الشعراء من أمثاله ينظرون دورهم.

فجأة تقدم الوزير يحمل رقعة مختومة من شاعر كبير أرسل قصيدته، وعندما سمع الخليفة انها من دعبل الخزاعي استوى جالساً وطلب من وزيره الجديد ابن ماسرجس ان يقرأها.

فض الوزير الختم وعندما وقعت عيناه على الأبيات الشعرية ارتجفت يداه وسقطت الرقعة فوق ارضية البلاط،

صرخ الخليفة بعصبية؟

ـ ماذا حصل؟!

قال الوزير:

ـ اعفني يا امير المؤمنين.

ـ قلت لك اقراها.

تقدم الوزير وهمس بكلمات اججت الجمر في عيني المعتصم، أمسك المعتصم بالرقعة وراح ينظر الى كلماتها ولكنه لم يستطع قراءة كلمة واحدة.. لشدّ ما يمقت الكتاب والكتابة!!

أمر الخليفة وزيره أن يقرأها له بصوت خافت وراح الوزير يقرأ بصوت مرتبك الأبيات الثائرة في زمن الخنوع:

ـ ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
كرام اذا عدّوا وثامنهم كلبُ
وانّ لأُعلي كلبَهَم عنك رفعةً
لأنّك ذو ذنبٍ وليس له ذنبُ
لقد ضاع أمرُ الناس حيث يسومهم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطبُ[73]

اشتعل الحقد في صدره وتأججت عيناه ببريق الانتقام وافلتت منه كلمات تركيه تعلمها من أمه في وعيد وتهديد[74]..

لم تمرّ سوى اسابيع معدودة عندما أمر الخليفة الجديد طرد العرب من مؤسسات الجيش والقوّات المسلّحة وصدرت أوامر مشدّدة على استخدام الاتراك الذين بدأ تدفقهم الى العاصمة بشكل هدّد فيها الأمن والاستقرار.

واصدر المعتصم أمراً بتعيين خادم تركي غليظ يدعى أشناس قائداً على الجيش كما اسندت له ادارة اقليم مصر.

وفيما كان الجنود الاتراك الذين جاءوا من الصحاري القاسية يعيثون فساداً في بغداد... كان احمد بن حنبل يتلوّى تحت سياط المحنة.. محنة خلق القرآن.

وكان الأمام الجواد ينظر الى الأفق البعيد فيراه مليئاً بالدماء القانية، من أجل هذا غادر بغداد قبل أن يصل ابن ماردة اليها.. ولكن...

25

أطل العام الجديد وبدا هلال محرّم ابتسامة حزينة توحي بالكثير من الأسرار... وتسامع أهل بغداد بتعيين تركي جديد ليكون قائداً من قادة الجيش، لم يكتف الخليفة الذي فارت دماء الأخوال في عروقه بالأفشين وبأشناس، فاذا هم يرون رجلاً يحسبه المرء معتوهاً إذا رآه.. ولكنّ زيّه كقائد عسكري وبريق الديباج يبهر الناس وهم يتطلعون اليه متصدّراً قوّاته التي غادرت بغداد نحو آذربيجان لقمع الثورة التي اندلعت قبل عشرين سنة.

وعندما حلّ يوم عاشوراء، تدفق اهالي بغداد الى شواطئ دجلة بالرغم من البرد القارس فالسواقي الصغيرة وبغداد تتجمد في منتصف كانون الثاني، وتظل شطآن دجلة مقفرة حتى اطلالة آذار وبدء الربيع..

ولكن ما دفع الناس الى التجمهر على امتداد الشواطئ هو الاعلان عن قدوم عشرات السفن من البصرة تحمل آلاف الرجال والنساء والاطفال من «الزط» الذين استسلموا بعد عشرين سنة من التمرّد في الأهوار جنوب العراق[75]..

فالأطفال الذين سمعوا حكايات البحّارة عن الزط ووصفهم لأشكالهم المخيفة جاءوا ينظرون اليهم..

وتضاعفت حوادث الدهس ذلك اليوم الحزين، وقتلت فتيات تحت سنابك خيول أصيلة يمتطيها جنود أتراك غلاظ الاكباد، وبرقت في عيون بعض الأهالي إرادة الثأر والانتقام.

وفيما كان موكب الخليفة الذي اعدّ له مكان على متن سفينة شراعية في الطريق؛ انبرى شيخ يتوكأ على عصاه.

المعتصم تحفّه رماح وجنود وأكباد مقدودة من الصخر الجلمود ووجوه كأنها المجانّ المطرّقة.. هتف الشيخ ملوّحاً بعصاه:

ـ يا أبا اسحاق:

وتبادر الجنود لافتراسه كيف يخاطب الخليفة دون ألقاب السلطان؟!

واستأنف الشيخ صرخته:

ـ لا جزاك الله عن الجوار خيراً.. جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا.. فأيتمت صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا.

لم يكترث المعتصم له لأنه رأسه الكبير كان يضج بالقلق والهواجس.. ربما تتفاقم الأوضاع وتصبح أكثر سوءً وقد يحدث تمرّد عسكري من يدري؟[76]

وبدأت سلسلة من اغتيال الأتراك، وكان بعض الاثرياء من أجل هذا فكّر المعتصم ببناء مدينة جديدة مدينة تسر من رآها[77] فهناك في «القاطول» مصيف لهارون الرشيد يمكن أن يكون نواة لهذه المدينة وأصدر الخليفة مرسوماً يمنع الاتراك من الزواج بغير التركيات.يريد لجيشه الجديد أن يبقى على تقاليده القاسية البعيدة عن أسباب الحضارة والمدنية.

وبدأ تدفق آلاف الجواري التُركيات ليصبحن زوجات... ولتصبح العاصمة الجديدة ثكنة عسكرية أو مستوطنة تركية تضم آلاف الاتراك المحاربين الذين لا يعرفون غير دق طبول والحرب.

الخليفة على متن سفينة شراعية وقد وصلت طلائع السفن والزوارق جنود اتراك يحفون بالخليفة واصبح التحدث

باللغة التركية جزءً من ثقافة بغداد الجديدة فهؤلاء الغلاظ سوف يمسكون بمقدرات الدولة الاسلامية المترامية الأطراف.

وصلت السفن وظهر «الزط» في السفن.. والمجاذيف تصارع مياه دجلة في طريقها الى الشمال، وقد ضرب الخليفة عصفورين بحجر واحد: التخلص منهم وجعلهم سدّاً بشرياً في مواجهة الروم[78].

أصوات أبواق الذط تملأ الفضاء، حتى اذا اجتازوا «الشماسية» حفتت إذ توجب عليهم مغادرة السفن الى الجانب الشرقي من دجلة لشحنهم براً الى خانقين ومنهم الى الحدود مع الروم في «عين زربة».

وفي المدينة الطيبة.. مدينة الرسول كانت النخيل تنشر الظلال ورياح شباط القارسة تهبّ وكان الشاب الذي ناهز الرابعة والعشرين من عمره في طريقه الى مسجد بناه جدّه العظيم..

حزيناً كان يسير.. سوف يودع الربوع الحبيبة وربما الى الأبد...

لأسباب غامضة قرر الخليفة الذي مضى على حكومته عام وبضعة شهور استدعاء صهر أخيه من أبيه.

ما أقسى الحياة في عالم غارق في الشرور.. عالم تستحيل فيه مُثُل الاخلاق الى كائنات خائفة مطاردة كأنها ليست من هذا العالم..

اتجه الشاب الذي أوتي علم الكتاب بكلّيته الى السماء في ظلال سقف المسجد، وقد فاح عبير قادم من ثرى يضم آخر الانبياء في تاريخ الانسان... وقف يصلّي ركعتين... سورة الحمد في كل ركعة، وسبعين مرّة تلا سورة الاخلاص..

ورفع كفّين سمراوين وكان قلبه يتجه الى نقطة هي مصدر الحياة والوجود وانسابت كلمات خاشعة:

ـ يا من لا شبيه له ولا مثال، أنت الله لا إله الّا أنت ولا خالق الّا أنت.. تفني المخلوقين وتبقى.. حلمت ممّن عصاك وفي المغفرة رضاك..

وفي المنزل قال لولده علي وهو يحاوره:

ـ ما تحبّ أنت أن يهدى اليك من طرائف العراق؟

قال الصبي:

ـ سيفاً كأنه شعلة.

قال الأب وقد ملأ قلبه الأمل:

ـ اشبهني أبو الحسن[79].

وفي منتصف شهر محرّم الحرام ودع الأمام أحبّ المدن اليه وأقربها الى قلبه، ودّعها وودّع ابنه علياً، ومضى الى بغداد... مصطحباً معه زوجته ابنة الخليفة السابع...

وقبل أن يطلّ هلال صفر ورد ابن الرضا بغداد من بوابة الكوفة ليبدأ الفصل الاخير من حياته.. غريباً سيقضي أيامه الأخيرة.. وما أقسى الغربة! سياط الجلّادين ارحم منها.

26

اتخذ الشاب المدني طريقه على شاطئ دجلة الشرقي وحيداً متجهاً نحو قصور الخلافة في الشماسية.. الشواطئ مقفرة بسبب لفحات البرد في أخريات شتاء سنة ٨٣٤ لميلاد السيد المسيح..

منظر دجلة وهو يخترق بغداد وحيداً بين النخيل كان حزيناً، ووقعت عيناه على جذوع نخيل محترقة كانت مجانيق الحرب الاهلية التي اندلعت قبل عشرين سنة قد احرقتها فهوت شهيدة على الشطآن.. ثم اتخذها صيّادو السمك فيما بعد مراسٍ لزوارقهم الصغيرة.. وفي الربيع تستحيل تلك الجذوع البائسة الى مصاطب للمتنزّهين.

فضّل محمد أن يسلك الطريق الساحلي مشياً على الاقدام يريد أن ينفس عن روحه مشاعر الغربة التي تحاصره في زمن

الزمهرير.

وفي القصر الجديد عقد المعتصم اجتماعاً مع الفقهاء لبحث عقوبة السارق.

وبدأت المداولات في الحكم الذي تبلور في جبهتين: فقهاء رأوا رأي قاضي القضاة أن يد السارق تقطع من المفصل بين الكف والساعد، وجبهة أخرى ترى قطعها من المرفق وكان الامام معتصماً بالصمت.. ينطوي على ألم عميق كيف تضيع شريعة الله حتى لا يعرف حكم من أحكامها وكيف يجتمع لصوص الحكم لقطع يد انسان سرق ربما دفعه الأملاق واليأس الى ذلك ثم جاء يتطهّر من خطيئته!

التفت الخليفة الى قاضي القضاة سائلاً:

ـ ما هو الدليل على رأيك؟

قال القاضي:

ـ لان اليد هي الاصابع والكف الى الكرسوع وقد قال الله في التيمم: ﴿ فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾.

والتفت المعتصم الى الجبهة الأخرى فقال فقيهها:

ـ بل يجب القطع من المرفق.

قال الخليفة:

ـ والدليل؟

ـ لأن الله قال: في الوضوء: ﴿ وأيديكم الى المرافق ﴾ فنحن نغسل ايدينا الى المرافق وهذا يدلّ على أن اليد هي الى المرفق.

وساد صمت مهيب.

واستدار الرأس الكبير الى الفتى الصامت فقال:

ـ ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

قال الذي عنده علم الكتاب:

ـ قد تكلّم فيه القوم!

ـ دعني مما تكلّموا به... أي شيء عندك؟

ـ اعفني يا أمير المؤمنين!

ـ اقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك!

ـ اما اذا اقسمت علي بالله فاني أقول: انهم اخطأوا فيه السنّة... ان القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع ويترك الكف.

قال المعتصم:

ـ وما الدليل على ذلك؟

ـ قول رسول الله ﷺ السجود على سبعة أعضاء: «الوجه واليدين والركبتين والرجلين» هذه هي المساجد

السبعة فاذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم تبق له يد يسجد عليها والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وأن المساجد لله ﴾ يعني به هذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾[80].

فغر المعتصم فاه لما يسمع وهتف:

ـ ان هذا لهو الحكم.

الذين حضروا الاجتماع ادركوا انهم أمام شاب آتاه الله العلم وجعله إماماً.

استحالت عينا القاضي الى كوّتين تطلّان على عالم يموج بالجحيم.. يموج بالشرور... وقد تأجّجت آلاف الغرائز والعقد... حسد وحقد وأطماع رخيصة وهواجس شيطانية.. وربما يعين الخليفة هذا الفتى الأسمر قاضياً للقضاة...

هتف في أعماقه: يا للهول.... سوف يقضي علي... لا.. لا.. لن أسمح أبداً.

لم يسمع الذين حضروا الاجتماع صيحات الرعب والحقد والضغينة في أعماق القاضي... ولكن الشاب وقد القى نظرة الوداع على الدنيا أدرك أنها النهاية... من أجل هذا أخذ أُهبه الاستعداد للرحيل.. الرحيل عن هذا العالم الملئ بالشرور

الى عالم أرحب زاخر بالطهر والمحبّة والسلام...

الجحيم تستعر في أعماق ابن أبي دؤاد... وآلاف الشياطين تعربد في صدره.. وقد استحال رأسه الى افعى منتفخة بالسم قال «زرقان» صاحبه:

ـ ماذا حصل يا قاضي القضاة؟!

قال بصوت يشبه فحيح الافاعي:

ـ انك لا تدري ما فعل هذا الأسود:

ـ من تقصد؟

ـ محمد بن علي

ـ ابن الرضا؟!

ـ نعم.

ـ ماذا حصل؟

ان سارقاً أقرّ على نفسه وسأل الخليفة تطهيره باقامة الحد عليه فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي فسألنا عن القطع في أي موضع فقلت من الكرسوع وقال غيري من المرفق...

لكن الخليفة سأل الأسود فأجابه بجواب بليغ وحدد موضع القطع من مفصل الاصابع ويترك الكف... فأخذ برأيه...

سكت زرقان وانطوى القاضي على شروره يفكّر ويدبّر فقتل كيف فكر، ثم قتل كيف دبّر...

لم تمض سوى ثلاثة أيام حتى انتفخ السم في بطن القاضي لم يعد يتحمل اكثر...ها هو في طريقه الى قصر الخليفة في الشماسية..

دخل على سيّده فألفاه يكرع كؤوس الخمرة مع ابن اخيه جعفر... الرأس الكبير ينظر بعينين ثاقبتين ليس فيهما ذكاء... كل ما فيها بريق الافاعي والحيّات...

قال القاضي وقد اترعت نفسه حقداً وسمّاً:

ـ ان نصيحة أمير المؤمنين عليَّ واجبة... وأنا اكلّمه بما أعلم انّي ادخل به النار!!

قال المعتصم وقد شمّ رائحة الخطر:

ـ تكلّم!

ـ لقد جمعتّ فقهاء الامّة وعلماءها لأمر من أمور الحكم وسألتهم عنه فأخبروك بما عندهم... وفي المجلس أسرتك وقادتك ووزراؤك وكتّابك ثم تترك اقوال الفقهاء وتأخذ بقول رجل يؤمن شطر هذه الأمّة بإمامته ويدّعون أنه أولى بالخلافة[81]...

ومع هذا فأنت تأخذ برأيه من بين الآراء..

وينتشر الخبر بين الناس... أليس في هذا خطر.

ضيّق ابن ماردة عينيه وعلت الصفرة وجهه:

ـ نعم لقد انتبهت.. هل عندك حيلة.

ابتسم القاضي بمكر ودهاء:

ـ دعني افكر.

27

لم يضع القاضي الذي انتفخ سمّه وقتاً واستحال الى شيطان مريد وبدأت الافكار الشيطانية تذر قرونها في الاعماق المظلمة واستحال العقل تلك الجوهرة المتوقدة في الانسان... استحال الى ألعوبة بيد الشيطان.. وعندما تبرق الاطماع عندما تستحيل الطموحات الهابطة الى صواعق حارقة ماذا يتبقى من العقل؟! سوف يسقط ضحية لآلاف الهواجس الشيطانية لقد مات الانسان في اعماق ابن ابي دؤاد واستحال الى رغبة في الانتقام واشتعلت نار الحسد فاحرقت آلف العقل والروح والضمير.

فكر القاضي: ان الامام لدى اتباعه من الشيعة انسان نزيه لا يرتكب الخطيئة فهو مثال ونموذج وقدوة، فاذا شوهد سكران فقد سقطت إمامته وانتهى...

وبرقت عينا الاسخريوطي بالغدر... نعم سوف يقضي عليه.. سيحرّض الخليفة على ان يجرّعه كأساً أو كأسين من الخمرة... أن خمرة «قطربل» سوف تفعل فعلها...

أسرع القاضي الى سيّده يبثه المؤامرة... وتساءل المعتصم هل يجدي ذلك؟!

قال القاضي سأجس النبض.. سوف اشيع ذلك أولاً، ثم نضرب ضربتنا القاتلة.

وفي اليوم الثاني قال القاضي وقد رأى في مجلسه رجلاً له علاقات مع الشيعة:

ـ ما رأيكم في شيء قاله الخليفة البارحة؟

ـ وماذا قال:

ـ قال: ما ترى الشيعة تصنع إن أخرجنا اليهم ابا جعفر سكران؟!

ـ اذن تبطل حجتهم وتبطل أفكارهم.. ستكون نهايتهم.

قال رجل يكتم ايمانه:

ـ انني اخالط بعضهم وأعرف أفكارهم ويفضون اليّ بأسرارهم، وإن ما يصنعه الخليفة لن يكون دليلاً بل العكس.

قال القاضي باستا:

ـ كيف!!

قال الرجل:

ـ انهم يقولون ان الأرض لا تخلو من إمام يكون حجة لله على الناس...

ـ لم افهم شيئاً.

ـ اذا قصد الخليفة «الجواد» من دون الناس ليخرجه الى الناس سكران أدركوا أنه الحجة لأنّ الخليفة يريد ابطال امامته والقضاء عليه وعندها ستكون هذه الخطة التي يريد السلطان تنفيذها دليلاً على إمامة الجواد.

وبهت الذي حسد وانطوى على خيبة مريرة لقد كان يطمح الى ضربة قاضية تكون فيها نهاية مذهب أهل البيت[82].

وأحاط القاضي خليفته وسيّده بما جرى... وقال الخليفة وقد برقت عيناه.

ـ دع الأمر لي.

وفي تلك الليلة، استدعىٰ الخليفة ابن أخيه ليقضيا معاً أمسية لذيذة...

وعندما كان جعفر يكرع كؤوس الخمرة «القطربلية» كان عمّه ينفخه سمّاً، وينسج له خيوط المؤامرة..

ومن ذلك الوقت أخذ جعفر يتردد على منزل الامام بحجة زيارة أخته وشقيقته...

وكانت العيون تبرق بالغدر.. وبدأت الزوجة الغادرة تصغي وقد انطفأت في أعماقها آخر شموع الانسانية، فاذا ذئاب الغيرة والأطماع تعوى في الأعماق الخاوية المظلمة.

28

جالساً يتحدث مع اصحابه وأصحاب كانوا لأبيه.. إذ قال رجل يعرف دسائس الحاكمين:

ـ يا بن رسول الله إذا جاء أمر الله فإلى من؟

قال الامام بحزن:

ـ إبني علي.. أمره أمري، وقوله قولي وطاعته طاعته طاعتي.

وسكت.. مرّت لحظات ثم رفع رأسه قائلاً:

ـ أما أنها ستكون فترة.. فالحق بالمدينة.

تساءل الرجل:

ـ أية مدينة؟

قال الامام وقد هزّ أعماقه شوق لجدّه الحبيب:

ـ مدينة الرسول.. وهل مدينة غيرها؟!

قال الرجل وكان يحفظ حديثاً عن النبي في عدّة الأئمّة:

ـ وبعد علي؟

ـ ابنه الحسن أمره أمر أبيه وطاعته طاعة أبيه.

وسكت الامام فقال الرجل وكان اسمه صفوان:

ـ يا بن رسول الله فمن الامام بعد الحسن؟

وفوجئ الحاضرون بالامام يبكي.. لم يدرك أحد سرّ الدموع التي امتزجت بالكلمات.. كلمات هي من صفحات المستقبل الغامض:

ـ بعد الحسن ابنه.. وهو القائم بالحق.. المنتظر.

ـ يا بن رسول الله ولم سمّي القائم!

ـ لأنه يقوم بعد ان ينساه الناس، ويرتدّ اكثر القائلين بامامته.

ـ ولم سمّي المنتظر؟

ـ «لأن له غيبة يكثر أيامها ويطول أمدها، فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ بذكره الجاحدون ويكذب فيه الوقاتون، ويهلك فيه المستعجلون، وينجو فيه المسلّمون»[83].

ووضع الأمام كفه على بطنه وتأوّه من الألم فتساءل

رجل كوفي.

ـ هل تشكوا شيئاً يا سيدي؟!

أجاب الامام وقد تذكر منديلاً[84] كانت فيه رائحة غريبة:

ـ معدتي..

وطلب طبقاً من الزبيب، وتناول هو وأصحابه حبّات منه..

شعر الكوفي بالظمأ وطلب ماءً، فنادى الامام على الجارية:

ـ اسقيه من نبيذي!

جاءت الجارية تحمل نوعاً من النبيذ في قدح نحاسي تناول الكوفي القدح وراح يرتشف على مهل متلذذاً بطعمه قال وهو يأتي عليه كلّه:

ـ انه أحلى من العسل.

وأردف:

ـ هذا الذي أفسد معدتك.

اجاب الامام بوّد:

ـ هذا تمر من نخيل النبي تمرسه الجارية في الماء، فأشربه بعد الطعام.

قال الكوفي:

ـ ان أهل الكوفة لا يرضون بهذا.

تساءل الامام:

ـ فما نبيذهم؟

ـ يأخذون التمر وينقّوه من النوى ويلقون عليه القعوة.

ـ وما القعوة؟!

ـ الدازي.

ـ وما الدازي.

أجاب الكوفي:

ـ حبّ يؤتى به من البصرة فيلقى مع التمر ثم يغلى معاً في الماء حتى يُسكر ثم يُشرب.

أجاب الامام مستنكراً:

ـ هذا حرام!![85]

وفي قصر الخلافة استدعى المعتصم بعض شخصيات الدولة وطلب منهم أن يشهدوا على الامام الجواد بأنه كان يخطط للثورة..

ولبى الذين باعوا انفسهم للشيطان وراحوا يعدّون رسائل مزوّرة على الامام فيها دعوة للقضاء على الخليفة

والاطاحة بحكمه!

وفيما كان الامام يتوضأ متهيئاً لصلاة العشاء طرق الباب جنود اتراك طلبوا منه الحضور أمام المعتصم على وجه السرعة.

قال المعتصم بفظاظة:

ـ انك تريد الخروج علي!

أجاب الامام مستنكراً الاتهام الظالم:

ـ والله ما فعلت شيئاً من ذلك.

ـ كلا لقد فعلت وهناك من يشهد على ذلك.

ـ من هم؟

ـ بعض الذين راسلتهم.

وظهر شهود الزور كما تظهر الحيّات من جحورها قالوا:

ـ نعم.. وهذه الكتب أخذنا من بعض غلمانك.

حدّق الامام في الوجوه الصفر.. انهم لا يعرفون معنى الانسانية ولا معنى الرجولة..

نظر الامام عبر نافذه مشرعة الى السماء الزرقاء وقد ظهرت بعض النجوم وكان القمر في المحاق.. مدّ كفيه الى السماء وقال:

ـ!!اللهم إن كانوا كذبوا عليّ فخذهم.

وارتجف القصر.. واهتز البهو.. لقد استجابت السماء دعوة المظلوم لسوف ينخسف القصر كما انخسف من قبله قصر قارون.

وصرخ الخليفة مذعوراً:

ـاني تائب فادعو ربّك يسكنه!

وتطلّع الامام الى السماء حيث كل شيء بأمره:

ـانك تعلم انهم اعداؤك واعدائي.. الهم سكّنه[86]!

وعاد السكون مرّة أخرى.. والأشياء الى حالتها، ونهض الامام..

ونظرات الخليفة المتوجسة تشيّعه.

29

كرع جعفر كأسين وأراد أن يتناول الثالث عندما سأله عمّه:

ـ هل سألت أختك عن الفاكهة التي يحبّها؟

ـ نعم..

ـ ماذا يعجبه؟

ـ العنب الرازقي[87].

ـ فماذا تنتظر اذن؟!

عبّ جعفر بقية الكأس في جوفه وقال:

ـ انها لا تريد أن تفعل.. قالت ألا يكفي المنديل؟!

ـ أحمل اليها الجواهر والذهب[88].. وتحدث معها عن الحياة في القصور... ثم الزواج بمن تشاء من شبّان بني العباس..

ـ سأزورها غداً.

ـ بل اليوم ولا تنس أن تأخذ معك سلّة من العنب. عنب رازقي.. وسلتين من ذهب.. أفهمت؟

ـ سأفعل ذلك.

ـ ستنادمني الليلة.. وسنتعشى معاً.. وستغنّيك الجواري الحسان.. وترقص من أجلك القيان وانتشى جعفر وهو يتخيل مشاهد الليلة الحالمة.

كان جعفر يترنح في طريقه الى منزل أخته يحمل معه ذهباً وعنباً ولؤلؤاً منضوداً وضعها بين يدي المرأة، فبرقت الاطماع في عينيها، حاولت أن تجد لها مبرراً.. استعادت ذاكرتها مشهد الفتاة السمراء التي دخلت عليها ذات يوم وقالت أنها زوجته..

استعادت احقاد الغيرة ورغبتها في الانتقام.. صحيح ان تلك السمراء بعيدة عن بغداد وتفصلها آلاف الأميال.. ولكنها تدرك أيضاً أن قلب زوجها هناك.. والاّ فما سرّ حزنه؟.. ما سرّ شوقه الى المدينة؟ ما سرّ اعراضه عن حضور الحفلات في القصور؟

قال جعفر وقد تأججت عيناه بالجريمة:

ـ العنب الرازقي سينهي كل شيء.. سوف تهنأين بالحياة مرّة أخرى.. آه ما أحلى الحياة في القصور وصائف وجواري وغلمان وذهب وحرير.

أطرقت المرأة ونهض جعفر فسكوتها يعني رضاها..

وفي العشاء، وضعت المرأة بين يدي زوجها طبقاً فيه ثلاثة عناقيد من عنب.. كانت تنظر الى زوجها وتنظر الى حبّات العنب التي بدت وكأنها رؤوس الحيّات.. حيّات لا أنياب لها..

وعندما مدّ يده ليأكل كادت المراة الغادرة تصرخ.. تناول حبّتين ووقعت عيناه على امرأته.. كان وجهها مصفراً.. لم تحتمل نظراته.. وفرّت مذعورة أدرك الشاب ان العنب مداف بالسمّ.. اشتعلت مرّة اخرىٰ الآلام الرهيبة في احشائه.. آلام تشبه آلاف السكاكين..

هتف بلوعة ومرارة:

ـ آه منك يا غادرة.. سينزل بك البلاء.. والفقر لن ينفعك الفرار.. وستلاحقك اللعنة.. الى الأبد[89].

لجأت المرأة الغادرة الى قصر الخليفة الذي أرسل في السَحَر رجلاً[90] بحجة تفقد حالة الامام!

ونظر الرجل الى الشاب الذي انطوى على آلامه.. وانبعث

سؤال في اعماقه: ما الذي يخشاه الجبابرة في هذا الفتى النبيل؟.. لعلّ جريمته أنه كان طاهراً في زمن الفساد.. كريماً جواداً في زمن البخل.. شفافاً في زمن تكاثفت فيه المادّة واصبح الانسان مخلوقاً من طين من صلصال من حمأ مسنون ليس فيه روح الانسان.. وجريرته إذن انه عاش ملاكاً في زمن تعربد فيه الشياطين.. وفراشة بيضاء في زمن الزمهرير.

وهمس الامام وقد قرأ ما يموج في اعماق الرجل:

ـ نحن معشر إذا لم يرض الله لأحدنا الدنيا نقلنا اليه[91].

وفي الصباح وفيما كان المعتصم يستعد للسفر الى سامراء قال الرجل:

ـ انه يشكوا آلاماً في أمعائه.

التفت المعتصم الى قائده التركي أشناس وحدثه بالتركية.

همز اشناس حصانه بقسوة وانطلق الحصان العربي الاصيل في مهمّة قذرة.

وفي الضحى طرق أحد كُتّاب القصر منزل الامام ووجه اليه دعوة لزيارته في منزله..

قال الامام معتذراً:

ـأنت تعلم أني لا أحضر مجالسكم!

أجاب الكاتب وهو لا يعلم بمخطط الجريمة:

ـاني انما ادعوك لتناول الغداء وتدخل منزلي فاتبرك بذلك.. وقد أحبّ بعض الوجهاء لقاءك.

بعد صلاة الظهر توجه الامام الى منزل الرجل الذي استقبل ضيفه بحفاوة بالغة... وفيما كان الامام يتناول طعامه على مهل دخل أشناس المنزل.. كان يحمل معه قنينة فيها شراب حامض.. قال أشناس بغلظة:

ـان أمير المؤمنين سمع بعلّتك وقد ارسل اليك شراب حمّاض الاترج ويقول انه ذاقه قبل أحمد بن دؤاد وسعيد بن الخضيب وآخرين.. ويأمرك أن تشربه مع الثلج!

ملأ الرجل قدحاً من «شربت الخليفة» ووضع فيه قطعة من الثلج.. وتناول الأمام جرعات منه.. قال صاحب المنزل لضيفة الكريم:

ـأرجو أن يضع هذا الشراب حدّاً لآلامك.

أجاب الأمام وقد شعر بالنهاية:

ـنعم انه سيفعل ذلك!

ونهض الامام متحاملاً فهتف الرجل:

ـالى اين يا سيّدي.

أجاب الامام وهو يشفق على الرجل فقد توجه اليه تهمة الاغتيال:

ـخروجي من دارك خير لك[92].

تفجّرت آلام رهيبة في امعائه.. لكأن الجحيم تستعر.. واصيب الشاب بنوبة من الاسهال الحادّ.. وكان جسمه الغض يذوي بسرعة رهيبة.. وروحه تشتد سطوعاً وعيناه تتألقان بنور شفاف.. لقد أزفت لحظة الرحيل..

وتذكر الشاب والده.. ولحظات الوداع يوم فارقة صغيراً كان عمره يومذاك ست سنين.. وها هو يودّع ابنه في المدينة وعمره ست سنين ايضاً..

وهمس بصوت فيه حشرجة الوداع الأخير:

ـلك الله يا بني..

وأمر بأحضار السيف الذي اشتراه له، فقبله وأكّد مرّة أخرى على أرساله الى ابنه..

وهمس متضرعاً الى الله:

ـالله ربّ الملائكة والروح.

والنبيين والمرسلين.

وقاهر من فى السموات والأرضين.

وخالق كل شي..

كفّ عنه بأس اعدائك..[93]

ومن خلال نافذة مشرعة نحو السماء راحت العينان المتألقتان بالنور تسافران الى عالم النور... عالم الحقيقة الوحيدة الأبدية:

ـ يا من لا شبيه له ولا مثال!

انت الله لا إله الاّ أنت.

ولا خالق سواك تفني المخلوقين وتبقى...

يا الله..

وجودكَ هو الحق الوحيد.

في عالم الاباطيل..

أنت السلام.. والسكينة

والروح.

كل ما في الكون أثر لخطاك

وهذه الشمس ايضاً

جزء من ظلك الوارف

لقد غدر بي الجميع

فجئت لائذاً بك

وما دمت تخفق في قلبي..

فأنني لن أموت

وفي المدينة المنوّرة كان الصبي الذي ودّعه أبوه من قبل جالساً مع أترابه في حضرة المؤدّب عندما شعر بموجة من الحزن تجتاحه وتغمر وجوده..

وشعور غريب ومدمّر باليتم يجتاح روحه..

إن جسده الغض يقشعر.. وانوار باهرة تضئ أعماقه الخضراء..

وحالة لا يمكن وصفها من الاتحاد بالوجود والتسامي ونداءات عميقة تدوّي: الله.. الله.. الله..

لم يعد يستطيع التحمّل أكثر من هذا.. ان روحه الشفافة تذوب... تتحول الى دموع واحساس بالفجيعة ورحيل السلام يغمر كيانه..

تفجّرت عيناه ينابيع من دمع ومن أسىً شفيف.. هبّ راكضاً الى منزله يبكي فيما فغر المؤدّب فاه دهشة: مالذي حصَل للصبي؟!

ـ ما الذي دهاك يا بن الرسول.

أجاب الصبي بلوعة اليتامى:

ـ لقد توفي ابي.

ـ كيف علمت.

أجاب ابن آخر الانبياء:

ـ دخلني من جلال الله شيء علمت معه أن أبي قد مضى[94].

مضت أيام وجاءت خيول البريد.. بريد بغداد..

لقد توفي الجواد وورى الثرى في مقابر قريش.. الى جنب جدّه موسى.. انا لله وأنا اليه راجعون.

وهذا السيف هدية الى ابنه علي!

أمسك الصبي بالسيف الذي تألق كأنه شعلة ودمعت عيناه.. ثم قام بأمر الله[95].

١٣ / ربيع الأول / ١٤٢٠ هـ

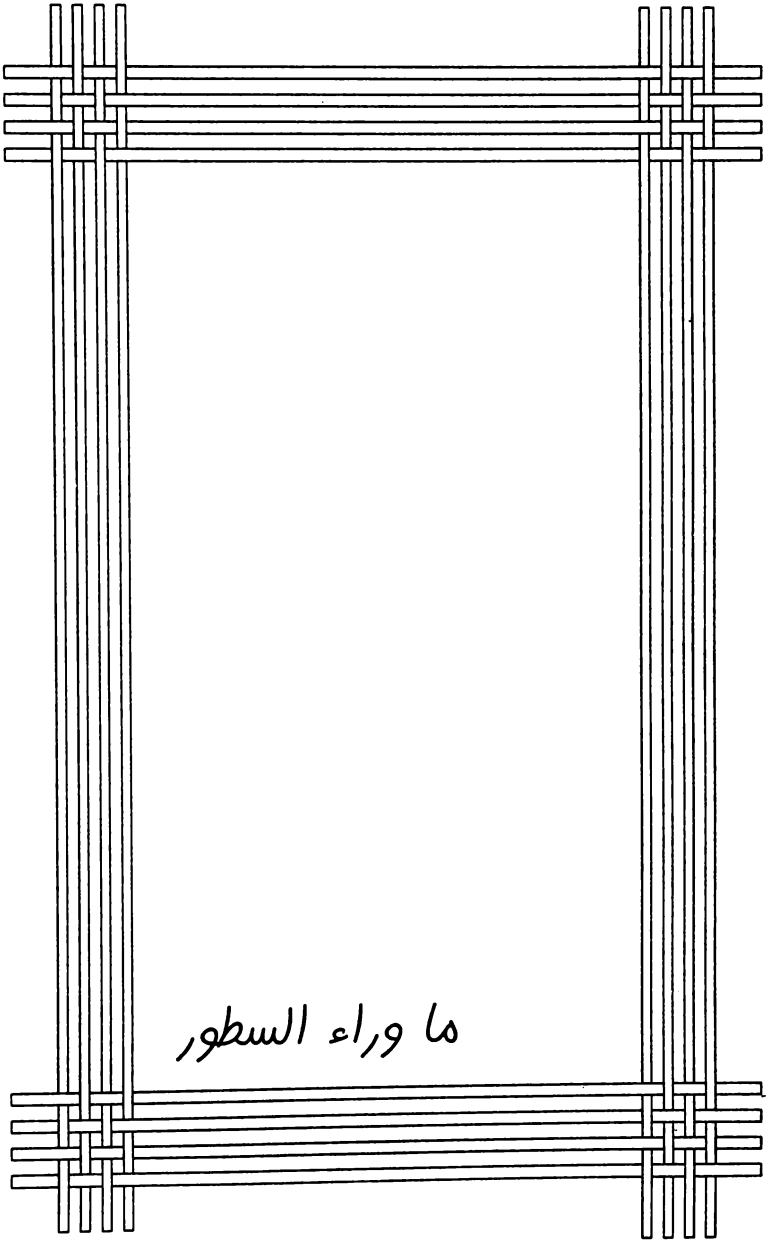
ما وراء السطور

1. احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين / د. عبد السلام الترمانيني ـ وقائع سنة ٢٠٤ هـ / ص ١١٧٢.
2. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٧٢، وفيات الاعيان الجزء السادس.
3. تاريخ العلوم عند العرب ـ حكمت نجيب عبد الرحمن / ٢٠٠ ـ ٢٢٠.
4. اختلفت الكلمة بين الناس ببغداد وفي الامصار (بعد وفاة الامام الرضا، واجتمع الريّان بن الصلت وصفوان بن يحيى ومحمد بن حكيم وعبد الرحمن بن الحجاج ويونس بن عبد الرحمن، وجماعة من وجوه الشيعة وثقاتهم في دار عبد الرحمن بن الحجاج في «بركة زلول» يبكون ويتوجعون من المصيبة، فقال لهم يونس بن عبد الرحمن: دعوا البكاء من لهذا الأمر؟ والى من يقصد بالمسائل الى أن يكبر هذا الصبي؟ يعني أبا جعفر».

اثبات الوصية المسعودي / ٢٢٠

5. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٣٨٥.
6. المصدر السابق / ٣٨٨.
7. الكافي: ١/ ٣٨٤.
8. المائدة: الآية (٣٣).
9. حياة الامام الرضا: ٢/ ٣٧٢.

10. يقول المأمون في الشطرنج:

أرض مـربعة حـمراء مـن أدم ما بين ألفين موصوفين بالكرم

تذاكر الحرب فاحتالالها شبهاً من غير ان يسعيا فيها بسفك دم

11. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٢٥٠.

12. احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين / ١١٢٥ وقد بلغ عدد العيّارين ابّان الحرب الأهلية أكثر من مئة ألف عاثوا في بغداد فساداً.

13. فارسية: بائس ـ البخلاء للجاحظ / ٧٠.

14. البخلاء / ٧١.

15. اخبار الدول / ١١٦، نور الابصار / ١٤٦.

16. تفرّع نهري يمرّ قريباً من نهر الكوفة.

17. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٦٢.

18. ثائر ايراني اشعل ثورته في جبال آذربيجان وقد تضاربت الانباء حول اسمه ونسبه وأسباب ثورته وأهدافه.. استمرّت ثورته زهاء عشرين سنة حيث امتدت من سنة ٢٠١ هـ وحتى سنة ٢٢٢ هـ وكانت ثورته قد بدات بعد منح المأمون طاهر بن الحسين فاتح بغداد في الحرب الأهلية حكماً أشبه بالاستقلالية في خراسان، اتصل بابك بالامبراطور الروماني تيفوئيل وقد انتهز الأخير انشغال الجيوش الاسلامية بحربه فراح يغير على الحدود..

أرهقت ثورته الحكومة العباسية في عهدي المأمون والمعتصم وقد انتدب الأخير الىٰ حرب بابك الخرّمي الأفشين القائد العسكري التركي فتمكن وبعد معارك ضارية من سحق الثورة وأسر بابك وشقيقه، فارسلا مخفورين الى سامراء حيث اعدم بابك في سامراء صلباً، فيما صلب أخوه في بغداد.

على أن عقائد بابك المزدكية واتصالاته بالروم وتحريضه على الهجوم على الدولة الاسلامية أدى الىٰ انفضاض كثير ممن انضموا تحت لوائه مما أدى الى

انحسار قوّته العسكرية وتراجع قوّاته الى المنطقة الجبلية، ثم وقوعه أسيراً في كمين وانتهاء تمرّده.

مروج الذهب: ٤٤٢/٣ ـ تاريخ الطبري ٧ / احداث سنة ٢٢٢ هـ.

19. قائد عسكري وبيزنطي ثار سنة ٨١٩م على الامبراطور ليون الخامس وكان يطمح نحو الاستيلاء على العرش، وجد تأييداً في منطقة آسيا الصغرى واعتبر محرّراً.

أمدّه المأمون بمساعدات عسكرية كبيرة رداً على دعم الروم لبابك الخرّمي.

أحرز أنتصارات باهرة، في برّ الاناضول واندفع زاحفاً نحو القسطنطينية، فحاصرها سنة ٨٢١م، ولكن الامبراطور استعان بالبلغار الذين تمكنوا من رفع الحصار، وانسحب توماس، ثم وقع اسيراً سنة ٨٢٣ حيث تم اعدامه.

الطبري ٧ / احداث سنة ٢٠٤ ـ العرب وصلتهم بالروم / ٣٢٠.

20. حرّم قاضي القضاة يحيى ابن اكثم المتعة وأباح اللواط!

الامام محمد الجواد من المهد الى اللحد / ٧٣.

21. اثبات الهداة ١٩/٦.

22. وسائل الشيعة ١١٥/٨.

23. حياة الامام الجواد ـ باقر شريف / ٢٢٨.

24. البدنة: الناقة أو البقرة السمينة.

25. الارشاد للمفيد / ٣٦٢.

26. دعاء الامام الحسين في عرفة.

27. الامام الجواد / ٨٧.

28. المصدر السابق.

29. بحار الأنوار ١٠٠/٥٠.

30. ايراني الاصل خزاعي الولاء، وقفت اسرته الى جانب الحركة العباسية منذ مراحلها

الأولى، ولذا حظيت بنفوذ خاص بعد انتصارها وتأسيس الدولة العباسية.
يعدّ طاهر من أصدقاء المأمون ورفاقه منذ الصغر، وكان معه في مرو ابّان انفجار الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون انتدبه الاخير للزحف نحو بغداد فسقطت بعد حصار طويل.
عينه المأمون قائداً للشرطة في بغداد لأعادة الأمن اليها، وفي عام ٢٠٥ هاسند اليه حكومة خراسان، فاستقل بها.
اغتيل بعد عامين وكانت اصابع الاتهام تتوجه نحو المأمون ولكن الأخير نصب أبنه مكانه لدفع الشكوك عنه.

الأعلام ٣١٨/٣ ـ البداية والنهاية ٢٦٥/١٠.

31. يحيىٰ بن زياد الكوفي أبو زكريا إمام الكوفيين في النحو واللغة اشترك في شبابه في ثورة فخ سنة ١٦٩ هـ وقطعت يده أثناء الاشتباكات مع الجيش العباسي.
وسطح نجمه في عهد المأمون الذي أمره بتأليف كتاب في اللغة، فانجزه في عامين. لقب بالفرّاء لأنه كان يفري الكلام.
من مؤلفاته الأخرى كتاب «المقصور والممدود»، «معاني القرآن» «المذكر والمؤنث» «آلة الكتابة»، «الجمع والتثنية في القرآن»، «الحدود» وكتاب «البهي» وقد ألفه لعبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان. توفي عن ٦٣ سنة.
جدير ذكره أن ثورة فخ إحدى اهم ثورات العلويين وكان لها شبه كبير بثورة الامام الحسين في كربلاء.

تاريخ بغداد ١٤٩/١٤، الفهرست لابن الندم / ٩٨؛ الأعلام ١٧٨/٩.

32. توفي النبي سليمان واقفاً وقد ورد في القرآن الكريم ذلك.

33. حياة الامام الجواد / ٧٢.

34. تحمل احمد ابن أبي خالد الأحوال مسؤولية الوزارة ورفض عنوان الوزير متشائماً من مصير الوزراء خاصّة بعد ما حلّ بالبرامكة، والفضل بن سهل، وقد

استبدله المأمون بوزير آخر (ثابت بن يحيى) واستُبدل الأخير بوزير رابع.
وقد اضمحل شأن الوزارة والوزير في عهد المأمون.
احداث التاريخ الاسلامي / ١١٧٩.

35. حميد بن عبد الحميد الطوسي، أبو غانم من كبار القادة العسكريين، كان مهووساً بالجنس، سمع يقول: اننا قد يئسنا من الآخرة وانما هي الدنيا فلا نحتمل لأحد أن ينغصها علينا.
قرر المأمون اغتياله وعندما أراد البناء بزوجته بوران بنت الحسن بن سهل قال له:
ـ يا أبا غانم قد أذنت لك في الحج.
فانطلق حميد الى منزله مسروراً وأمر باعداد أسباب السفر وفي نفس الليلة زاره الطبيب النصراني ابن بختيشوع ونصحه بتناول دواء منشط جنسياً.
وكان في المجلس الطبيب عبد الله الطيفوري، فأدرك السرّ وقال:
ـ أبو غانم قد ضعف عن هذه الشربة.
وسرعان ما سقط القائد العسركي مريضاً، ولكن الطيفوري لازمه وظلّ يعالجه الى أن تماثل للشفاء، لكنه لقي حتفه في دواء آخر!
ولكي يبعد المأمون الشكوك عنه نصب أبنه محمد قائداً عسكرياً وأرسله لقتال بابك الخرّمي، فلقى مصرعه في المعارك هناك. أما الوزير الأحول فقد توفي بعد شهور من الحادثة، فيما توفي الطبيب بعد عامين!
الاعلام ٣١٨/٢؛ وفات الاعيان ١٦/١، تاريخ بغداد ٤٤٦/١٤.

36. جبرائيل بن بختيشوع بن جرجيس، أبو عيسىٰ طبيب سرياني كان رئيسا لاطباء مدرسة جنديسابور اصبح طبيب هارون الرشيد الخاص، سجن في عهد المأمون واطلق سراحه بوساطة من الحسن بن سهل.

37. الاعلام ٣١٢/٢؛ تاريخ بغداد ٤٤٦/١٤؛ ابن الاثير ٥٨/٦.

38. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٧٤.

39. يحتفل نصارى العراق آنذاك في هذا اليوم ويظهرون الفرح.

40. الاغاني ١٣٨/٩.

41. نقل عن المأمون قوله: «كان لا يغني ابداً إلّا وتذهب عني وساوسي المتزايدة». حياة الامام علي الرضا / ٢٤٣.

42. انشد دعبل الخزاعي تائيته المشهورة في حضرة الامام الرضا في مدينة مرو، واهداه الامام قميصه وعندما مرّ الشاعر بمدينة قم لدى عودته، عرض عليه أهالي قم مبالغ طائلة ثمناً للقميص، وبعد اصرار والحاح باعه ايّاهم بمبلغ كبير ولكنه اقتطع منه جزءً من كمّه وأوصى أن يدرج مع اكفانه.

ويعد دعبل الخزاعي من شعراء المعارضة للحكم العباسي وعاش حياته متشرّداً بسبب ذلك.

له مؤلفات عديدة في اخبار الشعراء: «اخبار شعراء البصرة» «أخبار شعراء الحجاز» و«اخبار شعراء بغداد». الفهرست /٢٢٩.

43. دُفن الامام الرضا عليه السلام الى جانب قبر الرشيد تحت قبة واحدة.

44. الحياة السياسية للامام الرضا / ٤٣٣.

45. ق: الآية (٧).

46. الاحزاب: الآية (٧).

47. الانفال: الآية (٣٣).

48. العيّارون: العيّار هو النشيط في المعاصي، ثم اطلقت على اللصوص والنهابين، وقد عبثوا في بغداد ابان الحرب بين الاخوين الأمين والمأمون وبلغ عددهم أكثر من مئة ألف.

49. بحار الانوار ١١٢/١٢.

50. حياة الامام الجواد / ٣٤٨.

51. اخبار الدول / ١١٦؛ وسائل الشيعة ١٠٥٩/٤.

52. اعيان الشيعة ٢٤٥/٢.

53. وسائل الشيعة ٤٩٩/٦.

54. بحار الانوار: ١٢٩/١٢.

55. يذكر التاريخ أن الوالي استقبل حامل الرسالة على بعد اميال خارج المدينة، واعتبر الرسالة شرفاً له كما أعفاه من ضريبة الخراج مدّة ولايته.
بحار الانوار ١٢٩/١٢.

56. عصر المأمون ٣٧٥/١، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ـ حكمت عبد الرحمن / ٢٠٢.

57. تاريخ الطبري ١٤٩/٧، ابن الاثيرن / ٢٠٧/٥.

58. مناقب آل ابي طالب ٣٩٦/٤.

59. تاريخ الطبرى ١٤٩/٧.

60. ابن الاثير ٢١٢/٥.

61. كان ابن مهزيار نصرانياً فاسلم واخلص في اسلامه. رجال الكشي ٨٢٥/٢ـرجال النجاشي / ٢٥٣.

62. يبدو أن ابن مهزيار قد عمل على تخفيف محنة أهل قم بطريقة ما.

63. رجال الكشي ٢ / ٨٢٦.

64. الاغاني: ١ / ١٦٢.

65. الطبري ٥٨١/٨، ٥٩٦.

66. عبد العظيم بن عبدالله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليه السلام، اشتهر بعبادته وجلالة قدره. روى عن ائمة أهل البيت عليهم السلام عشرات الاحاديث.
عاش حياته مستتراً باستثناء فترة المأمون، لجأ الى مدينة الري (جنوب طهران)

مخفياً هويتة الحقيقية.

وعندما توفي وجدوا رقعة جاء فيها: «أنا ابو القاسم عبد العظيم بن عبدالله بـن علي..». واصبح قبره مزاراً كبيراً يؤمه آلاف الزائرين.

67. اثبات الوصية / ٢٢٨ ط انصاريان.

68. بحار الانوار ٦٩/٥٠.

69. احداث التاريخ الاسلامي / ١٢٣٧.

70. بحار الانوار ٧٠/٥٠.

71. اخبار الدول / ١٥٥ كان المعتصم امياً بل ويحقد على العلم والعلماء.

72. تاريخ الخلفاء / ١٠٤.

73. ديوان دعبل / ١٣٠.

74. جارية تركية اسمها ماردة / مروج الذهب ٩/٤.

75. تاريخ الطبري ٢٣٢/٧.

76. المصدر السابق ٢٣١/٧.

77. مدينة سامراء شمال بغداد.

78. الطبري ٢٢٦/٧.

79. اثبات الوصية للمسعودي / ٢٢٨ ط انصاريان.

80. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٣٠٨ ـ ٣١١.

81. المصدر السابق.

82. المصدر السابق.

83. اكمال الدين ٥٠/٢.

84. تذكر بعض الروايات ان زوجته اعطته منديلاً مسموماً / موسوعة العتبات المقدسة ٢٣٦/٩.

85. الكافي ٤١٦/٦.

86. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٢٩٩.
87. اثبات الوصية / ٢٢٧.
88. نزهة الجليس ١١١/٢؛ المناقب ٣٩١/٤.
89. اثبات الوصية / ٢٢٧.
90. الارشاد / ٣٦٩.
91. بحار الانوار ٩٩/١٢.
92. تفسير العياشي ٣١٩/١.
93. الامام علي الهادي دراسة وتحليل / باقر شريف.
94. اثبات الوصية / ٢٢٩.
95. المصدر السابق / ٢٢٨.

نظرة في
الرواية التاريخية

في رأيي إنّ العمل الروائي التاريخي لا يعني الخروج بعمل قصصي تقليدي علىٰ حساب الحقائق التاريخية (اعمال جورجي زيدان نموذجاً).

اني أنظر إلىٰ الأثر الروائي التاريخي علىٰ اساس تجاوز الجانب التسجيلي والغوص في العمق الانساني، وتصوير البيئة بثقافتها وطرائق العيش فيها ومستويات واتجاهات التفكير السائد علىٰ أن ذلك يتمحور في معظمه حول إماطة اللثام عن الحقائق التاريخية المستورة تحت ركام الوقائع، والبحث عن بواعث الصراع والاهداف والغايات المتصارعة.

وفي رأيي إن أهل البيت عليهم السلام ليسوا إلّا رموزاً وأبطالاً للانسانية جمعاء؛ ذلك إنهم لا ينحصرون بانتماء فئوي أو طائفي بل أنهم للانسانية كلّها علىٰ اساس إن الاسلام هو الدين الانساني والذي يمثل رسالة الله الأخيرة.

فالنسيج الامامي لأهل البيت إنما يمثل طريقاً انسانياً متكاملاً

ثرياً بالتجارب المتنوعة التي تمليها الظروف المتغيّرة والتحديات.

كما ان بعض مشاريعنا الثورية في العصر الراهن انما هي استلهام لتجارب المعصومين الفذة والغنيّة ولنا في تجربة الإمام الراحل، وتجربة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ما يكفي للاستدلال في ذلك؛ وكذلك تجربة الشهيد محمد صادق الصدر مؤخراً.

فهناك ذاكرة حيّة تسجل باجلال تجارب الماضي الانسانية النبيلة. إن المطلوب في العمل الروائي التاريخي هو استكشاف الجانب الانساني وفي تجربتي الكتابية محاولات متواضعة للتصوير الفني علىٰ أساس أن الاسلوب الأمثل يتألف من أبعاد هامّة: هي انطوائه علىٰ فكرة وقالب وحقيقة تمثل جميعاً روح الكلمات ومن ثم روح النسيج الروائي وحياته.

فكلما عرضت الافكار أو المعاني بما يناسبها من قوالب وكلمات اقتربت من الحقيقة المودعة في ذات الانسان كان العمل الأدبي أكثر تأثيراً ونجاحاً.

ولنا في القالب القرآني مثلاً أعلى لأي كاتب يريد لقلمه وفكره واسلوبه التأثير المنشود.

اننا لا نملّ مهما قرأنا سورة يوسف لأنها تتدفق عذوبة ورقة ودقة في تصوير المشاهد في أعمق نقطة من الذات الانسانية، حيث تموج

الحلجات والمشاعر والاحـاسيس والخـواطـر والافكـار والاطـماع والغرائز ثم تصوير المشاهد الخارجية بـعدسة دقـيقة وحـركة رشـيقة أخّاذة.

فهناك تناغم بين المعاني والالفاظ والافكار والايـقاع؛ وهـناك اسلوب مذهل في توزيع مساحات الضوء والظلال.

لقد بهر القرآن الكريم العربي المـرهف الحس بـاسلوبه الفـريد ودفعه إلىٰ الاصغاء لسوره ومن ثم التأمل في صورة وحقائقه، وفي قصة المغيرة ما يجسد ذلك عندما وصف القرآن بالسحر.

وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام مؤسس البلاغة في دنيا العرب ينفرد باسلوب انساني تجد فـي حـناياه واعـماقه صـدىٰ الآيـات... آيـات السماء..

فكلماته الملتهبة تأتي فـي المـناسبات الحـماسية المـلحمية: «الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين».

أما كلماته الهادئة فتأتي في مناسبات تدفع بالانسان الىٰ حديث هو أشبه بحديث النفس للنفس والضمير للوجدان، كما نجد ذلك وهـو ينفض التراب عن كفيه وقد فقد حبيبه فيقول:

«فقد الأحبة غربة».

فإذا أراد أن يعبر عن سرعة انطواء الحياة.. حـياة الانسـان نـراه

يقول: «الرحيل وشيك».

ولك أن تتأمل في «وشيك» كم هي سريعة خاطفة كسهم يمرّ قرب اذنك يجذّر لك الحقيقة.. حقيقة الرحيل.

لكننا سنرى شيئا آخر.. ففي سنة ٦٠ للهجرة وفي عالم يعج بالشرور والخنوع والذل؛ ليس أمام بطل الانسانية في عصره وهو الحسين بن علي سوىٰ الاقدام علىٰ خطوة اعتبرت في حينها خطوة جنونية.. ولكنها الخطوة التي اختار القدر لها مسرحاً طبيعياً أخاذاً فجّرت الحس الثوري ومشاعر الكرامة في الانسان العربي المسلم، فكانت انقاذاً لحضارة الإسلام من السقوط المريع الذي ينتظرها.. وهذا غاندي الهندوسي بطل اللاعنف ومحرّر الهند يقول: «علمني الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر» أو «استقيت صبري من صبر الحسين».

الغرب:

ولعل البدايات الأولىٰ للاطلاع على الأدب الغربي تعود إلىٰ أعمال الكاتب المصري مصطفىٰ لطفي المنفلوطي وبالتحديد روايته «الفضيلة» او «بول وفرجيني» لقد مضىٰ أكثر من ربع قرن علىٰ ذلك ولكن جزيرة موريس حيث وقعت أحداثها ما تزال ملتهبة في خيالي، وما زال «بول» المسكين و«فرجيني» الطاهرة ينبضان بالحياة وما يزال

«خليج القبر» حيث تحطمت السفينة التي تحمل تلك الفتاة يموج بالعاطفة الهوجاء..

نعم فبالرغم من أن «الفضيلة» لا تعد ترجمة بالمعنىٰ المعروف وانها ليست إلّا اقتباساً أو نسخة مصرية أؤكد أنها تفوق في نسيجها الأصل الفرنسي فان ذلك قد جعلني انظر إلىٰ الآداب الاجنبية علىٰ اساس انطوائها علىٰ أدب انساني رفيع جدير بالتقدير.

ولا أخفي تأثري فيما بعد بالرواية العالمية «الساعة الخامسة والعشرون» لجورجيو التي تصوّر بشاعة عالم ما بعد الحرب الثانية وكذا رواية «الجذور» اليكس هيلي التي تعكس بعمق ومرارة مأساة الزنوج في أميركا وفي الرواية العربية هناك رواية حنامينا: «الشراع والعاصفة» وروايات نجيب الكيلاني خاصّة وانها أدت دوراً هاماً في شدّ انظار الضمير العربي المسلم الىٰ ما يجري في أفريقيا في «عمالقة الشمال» وإلى اندونسيا في «عذراء جاكرتا»، وإلى مأسي تركستان في «ليالي تركستان».. أما رواياته التاريخية الأخرى فتمتاز هي الأخرىٰ في بلورة وعي تاريخي أرقىٰ لاهتمامه بالقيم الإسلامية بعكس اتجاهات جرجي زيدان في الكتابة عن تاريخ الاسلام روائياً.

والرواية المعاصرة ولأنها تتبنىٰ اساليب فنية جديدة كالاسترجاع (فلاش باگ) أو تيار التداعي وهو إيحاءات العقل المتدفقة

من أجل هذا تتطلب قارئاً صبوراً أكثر صبراً من قارىء الرواية التقليدية التي عادة ما تكون سطحية الىٰ حدّما، وينهض بناؤها على حالة من التسلسل الزمني وهذه مسألة حيوية ومهمة هدفها تسجيل ظاهرة هامّة وهي حركة العقل المتدفقة والمستمرة بكل ما تشتمل عليه من تداعي المعاني من غير تسلسل منطقي.

وينبغي التأكيد أيضاً علىٰ أن بعض الروائيين اشبه ما يكون به أجهزة استقبال حساسة فنتيجة لأحاسيسهم المرهفة وذكائهم صاغوا أعمالاً روائية تناغم الحالة النفسية والاجتماعية لبيئتهم في مقطع زمني معين، وهذا ما يفسّر نجاح أعمال «سارتر»، و«كامي» مثلاً بعد أن اهتزت بشدة ثوابت الغرب الاخلاقية ابّان الحرب العالمية الثانية.

العمل الروائي بشكل عام ينهض علىٰ تصوير الأحداث والشخصيات أي علىٰ تصوير أمثلة من السلوك الانساني، والسلوك الانساني انما يعبر عن قيم اجتماعية معينة سواء كان هذا التعبير ايجابياً أو سلبياً أي خاضعاً لهذه القيم أو متمرداً عليها، بل أن اختيار الكاتب الروائي لاحداثه، ودلالة هذه الاحداث عنده ينبعان أصلاً من مواضعات اجتماعية.

أما الرواية العربية فقد عاشت في مساحة منها هاجس الاحتكاك بالحضارة الغربية ونلمس هذا في «عصفور من الشرق»، لتوفيق الحكيم

و«موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح، «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، و«الحي اللاتيني» لسهيل ادريس.

مستقبل الرواية

كانت هناك تنبؤات خاصّة من دعاة الاشتراكية المثالية حول مصير الأدب والفنون وأنها سوف تضمحل وتزول لأنها ليست سوى تعبير عن بعض أشكال النزاع في المجتمعات وشعور الانسان بالوحدة المريرة واذن فهي صرخات استغاثة من تلك العزلة المدمّرة التي يعاني منها الانسان المعاصر..

وهم لا يستثنون سوىٰ الموسيقىٰ التي سيكون لها مصير آخر مختلف لأنها تعبر عن السعادة والحب وحالة الانسجام.

ومن المؤكد أن العمل الروائي يجب أن يعبر بشكل أو آخر عن نظرة عامة عن العالم وحلّ أزمة الايمان خاصّة في المجتمعات الغربية التي اهتزت بعنف اثر حربين عالميتين مدمرتين.

الرواية بالذات هي نسيج أدبي فتي يناهز عمره القرنين والنصف في الغرب وأكثر من نصف القرن في دول «الجنوب».

وهذا الاتجاه الادبي انما ولد نتيجة الشعور بضرورة محاكاة الواقع الحي في المجتمع الانساني مع التأكيد علىٰ أن هذه الحاجة أيضاً

ا جاءت نتيجة هاجس لشريحة واسعة من المجتمع وجد نفسه في ،جة الىٰ أساليب حديثة للترفيه عن النفس.

ولذا نجد أميلا زولا هو يتزعم المدرسة الواقعية يرسم بريشته الماهرة حركات القطار بدقة وهو يغوص في مشاعر شخصياته في روايته «الوحش البشري» ثم برز اتجاه آخر ورائده دستوفيسكي الذي لم يكتف باستعراض المشاهد الخارجية وانما تقمص شخصياته تقمصاً تاماً وابدع في ذلك حتىٰ أصبحت أعماله ميداناً للدراسات النفسية.

بينما نرىٰ تولستوي يحاول الاتجاه اخلاقياً من خلال دمج مصير الفرد في اطار مصير جماعي تاريخي في روايته «الحرب والسلام» و «البعث» في حين نرىٰ تيار الشعور «الوعي» الذي اسس له دي جاردان وطوره جيمس جويس وفرجينيا وولف في الرواية الانكليزية.. من أجل الكشف عن مستويات الوعي السابقة علىٰ التعبير، وهو أرقى من اسلوب المونولج الذي يشبه حالة الاسترجاع.

وليس من شك فإنّ الرواية التاريخية وعلى خلاف تنبؤات الاشتراكيين سوف تزدهر في المستقبل.. لأن التاريخ فى حدّ ذاته هو ذاكرة الانسانية ومستودع التجارب البشرية.

ومن هنا فأن الرواية الانسانية للتاريخ سوف تسهم فى اكتشاف قوانينه وسننه.

كما أن هناك كثير من الأفكـار والعـقائد مـاتزال تـثير الجـدل لغموضها التاريخي الذي يتطلّب الكشف عن بعض حقائقها..

ومن هنا جاءت «وكان تقيا» رواية تاريخية تحاول اسـتكشاف التجربة الانسانية لانسان هو في نظر الملايين يمثل المثال في عـصره ونموذجاً أخلاقياً سامياً فـي سـيرته الذاتـية التـي تـجاوزت الذاتـية الشخصية لتمثل حركة الاسلام فكراً وأخلاقاً وانسانية..

يبقىٰ أن أذكر مرّة أخرىٰ أن هذا العمل هو الثـامن فـي سـلسلة الكتابة الروائية التاريخية باسلوب يحاول استكشاف الحقائق الانسانية الكامنة وراء وقائع التاريخ في فصل من فصوله عبر القرون..

المحتويات

الاهداء..... 6
الرواية ..... 9 - 174
ماوراء السطور..... 177 - 185
نظرة في الرواية التاريخية..... 187 - 195

* * *

قال الامام الشهيد:

- «القصد الى الله بأعماق القلوب أبلغ من اتعاب الجوارح»
- «من استغنى بـالله افـتقر النـاس اليـه، ومـن اتـقىٰ الله أحـبّه الناس».
- «ثلاث خصال تُجلب فيهن المودّة:

  الانصاف في المعاشرة..

  المواساة في الشدّة..

  والانطواء علىٰ قلب سليم».
- ووردته رسالة من صديق له يشكو فيها أباه وموقفه المتشنج ازاء أهل البيت، فجاء موقفه الانساني:

  «قد فهمت كتابك، وما ذكرت من امر ابيك ولست أدع الدعاء لك إن شـاء الله، والمداراة خير لك من المكاشفة، وان مع العسر يسراً، فاصبر ان العاقبة للمتقين.

  ثبتك الله على ولايـة مـن تـولّيت... نحن وانتم وديـعة الله التـي لاتـضيع ودائعه».

وقالوا فيه:

«محمد بن علي الجواد كان من اعيان بني هاشم، وهو معروف بالسخاء، ولهذا سمّي بالجواد» ابن تيمية

منهاج السنة: ١٢٧/٢.

«كان يلقب بالجواد، وبالقانع، وبالمرتضىٰ.. وكان من الموصوفين بالسخاء ولذلك لقّب بالجواد» الصفدي

الوافي بالوفيّات: ١٠٥/٤

«كان علىٰ منهاج أبيه في العلم والتقىٰ والجود»

السبط بن الجوزي

تذكر الخواص: ٣٢١.

«محمد بن الرضا بن موسى الكاظم الطالبي الهاشمي، القرشي، أبو جعفر الملقّب بالجواد تاسع الائمة الاثني عشر عند الامامية كان رفيع القدر كأسلافه ذكياً طلق اللسان، قوي البديهة».

خير الدين الزركلي

الاعلام: ١٥٥/٧.

أعمال صدرت للمؤلف

- وكانت صدّيقة: رواية تاريخية حول حياة السيدة الزهراء عليها السلام.
- ألم.. ذلك الحسين: حول الامام الحسين عليه السلام.
- امرأة أسمها زينب: حول السيدة زينب عليها السلام.
- وسلاحه البكاء: الامام السجّاد «علي بن الحسين» عليه السلام.
- جعفر أيها الصدّيق: الإمام جعفر الصادق عليه السلام.
- على الجسر ببغداد: الامام موسى الكاظم عليه السلام.
- الطريق إلىٰ خراسان: الامام علي الرضا وشقيقته فاطمة عليهما السلام.

****